كلمات وإشارات

بقلم

مي

نشرته

مجلة « الهلال »

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤
يناير سنة ١٩٢٢

كلمات وإشارات

بقلم

مي

نشرته

مجلة «الهلال»

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤

يناير سنة ١٩٢٢

ان لمن دواعي الافتخار « للهلال » ان يبرز الى عالم الادب العربي هذه المجموعة الفريدة ـ نقول فريدة لا من قبيل الاطراء المألوف بل تقريراً للواقع اذ لا نعرف بين مختلف المصنفات التي نشرتهـا المطابع العربية مجموعة خطب تضاهي هـذه في تنوعها وسلاستها ورشاقة أسلوبها و بعد مراميها وجمعها بين طلي الفكاهة وعميق البحث والمغزى، فضلاً عن كونها من قلم آنسة شرقية عربية

ان الخطابة مراتب واجود الخطب تلك التي لا يفقدها التدوين شيئاً من محاسنها . فالمطالعة محكُّ الخطابة وتعدُّ الخطبة جيـدة متينة اذا تساوى فعلها في نفس سامعها ونفس قارئها . ومن هـذا النوع خطب الآنسة « مي » التي يحسّ قارئها كأنها تلقى امامه

فالى جمهور الناطقين بالضاد ، الى كل شغف بالادب الراقي ، الى كل معجب بالنهضة النسائية الشرقية، تقدم هذه المجموعة النفيسة ـ بل الحديقة الادبية الغناء ـ وملء قلبنا الاعتقاد بانهم سيجدون فيها أشهى الازهار وأجملها وافكه الثمرات وأطيبها

اميل زيدان

فهرست

حفلة « الكوخ الاخضر » (١)

لا أجرأ على رفع كأسي لأنّ مَن رفع كأسهُ في مثل هذا الموقف وجب عليه تأدية الثمن كلاماً بليغاً . وأنّى لي البلاغة ، أنا التي يتعثر لساني في اللفظ العربيّ البسيط ؟ وكيف أجيء بالكلمة المُحكَمة أنا التي لا اعرف شيئاً ، وقد فاجأتني عنايتكم بقولٍ جميل منظومٍ ومنثور وبثناءٍ قد يستحقه عالمٌ قضى عشرات الاعوام في البحث والتنقيب والإنتاج - ولكنهُ يدهش فتاةً ما زالت عاكفةً على كتب الصفة الاولى ، تستظهر من الدروس ما يستظهره طلبة المدارس الابتدائية تقريباً ، وتهيء فروضاً اعتاد التلاميذ تهيئتها خلال العطلة الصيفية . لم يُبنَ هذا الكوخ لهذه

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الحفلة التي أقيمت في منتصف شهر اغسطس سنة ١٩١١ في ظهور الشوير بلبنان

الفروض وتلك الدروس فحسبُ وانما أردتُ ان يكون لي أيضاً خلوة أحلمُ فيها وألعب وألهو . ولكنكم تجمهرتم قربه ودشّنتموه كما تدشّن الصروح الكبيرة ، ورفعتم فوقه علماً يخفق بين الغصون ، وأثرتم حوله في هدوء الغياض تصفيقاً وإنشاداً

فلمن فعلتم ذلك ، ولماذا أنتم فاعلون ؟

لو علمتُ ان الاحتفاء بي وحدي مجردة لحبس الخجلُ كلمة الشكر على شفتيّ ولاختلجت يدي وهي تحمل الكأس. ولكني أعلم ان الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر في فتاة وأعظم من أن توجّه الى فرد . وانما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموماً التي تقولون لها في شخصي ان في الشرق روحاً جديدة تطلب نهضتها ، وان عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرةً ما ينمّ عن رغبتها في النهوض أو عن مجرد ميلها اليه ، لتمدّوها بالقوّة والتنشيط الممكن

دفعتكم هذه الروح الجديدة إلى تحيُّن الفرص فاتخذتموني واسطة ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال . اتخذتموني واسطة وأردتم ان يكون هذا الكوخ حجراً معنوياً

في صرح النهضة النسائية ، ورمزتم بهذا العلَم الى راية تحرير العقول من الخرافات والاوهام ، وما كانت اصوات الهتاف الاّ اصوات نفوس تحثُّ المرأة والفتاة المصرية على السير الى الامام . « الى الامام ! » هذا ما أردتم ان تقولوا . وأنا التي اتخذتموني واسطة لاظهار هذه الرغبات الحية والعواطف النبيلة أراني الساعة ممتلئة بكرامة وأهمية لم أشعر بها من قبل . تلك نتيجة المسؤولية دواماً . وغداً عند ما أعبرُ عتبة هذا الكوخ الصغير الذي جعلته حفاوتكم عظيماً، سأنظر اليه بعينين جديدتين فيتخذ انفرادي فيه معنى أسمى وأجلّ من أحلام الفتاة وأهوائها وآمالها . لانكم نبّهتموني الى انه على فتاة هذا الجيل ان تهدم حدود شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثّلاً في ذاتها : فتنتفع لتنفعه ، وتسير لتسيّره ، وترتقي لترقّيه

كلّكم تقريباً ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال ، من ابناء سوريا الذين انطلقوا الى ما وراء البحار باحثين عن ميدان واسع يمرّنون فيه قوى نشاطهم وذكائهم الفطريّ . وها قد القيتم ، خلال اقامتكم القصيرة في بلادكم ، شرارة الحياة في

دائرة الحركة النسائية. ستعودون انتم الى ديار استوطنتموها ولكن الشرارة هنا لن تخمد

وبالشخصية الجديدة التي أنلتموني ارفعُ الجبهة عالياً وأرفع الكأس بيدٍ ثابتةٍ والفخرُ فيَّ يتغلب على التأثر والخجل، وأشرب نخبكم جميعاً. شاكرةً اللجنة التي نظّمت هذا الاحتفال، والامير قبلان أبي اللمع الذي تصدَّره، والخطباء الذين جمّلوه ببيانهم، والسادة والسيدات الذين زانوه بحضورهم. ولما كان من أهم دواعي سروري ان أرى مصر وسوريا متحاذيتين في هذا الاجتماع، وان اسمع الخطيب المصري يتلو الخطيب السوري مشتركين في الهتاف لمصر وسوريا على هذه القمة البعيدة. فاني أشرب أيضاً نخب القطرين الشقيقين في هذه الجرعة الواحدة: لتحي مصر وسوريا! ولتحيوا جميعاً!

حفلة بكفيا [1]

لساني قاصرٌ لا يهتدي الى الكلمات المعبرة عما يهزني من عوامل التأثر والشكر لأهل هذه البلدة الجميلة الذين خصوني بالتفات رقيق فاقاموا في هذا العيد المظيم هذه الحفلة الانيقة التي جعلت العيد عندي عيدين . ويا ليت لي بعض ما عند حضرات الخطباء والشعراء من الفصاحة والبراعة إذن لقابلت درر أقوالهم بالمثل ولما وجدتني متلعثمة في هذا الموقف

لو كان عندي أزهار، أيها السادة والسيدات، لقدمت الى كل واحد وواحدة منكم زهرة تنطق بنضرتها عن شعوري. لكنّ الازهار عندي قليلة جُمعت في هذه الطاقة الواحدة ، وانتم كثيرون . وزهرات الحدائق تعيش يوماً وتموت في غده أما زهرات العواطف فتبقى على نضرتها دواماً . فاقبلوا اذاً أزهار شكري القلبيّ وأسمى عواطف

(١) القيت في الحفلة التي أقيمت مساء ١٥ اغسطس (يوم عيد العذراء) سنة ١٩١٢ في بكفيا بلبنان

امتناني . ودوموا سعداء يعزُّ بكم هـذا الموسم عاماً بعد عام وانتم ابداً صاعدون في معارج العز والفلاح

***

أيها السادة والسيدات ،

أجل ، شرقنا جميل ولكن الروح الشرقيـة التي تحييه أجمل منه . ومياه الشرق عذبة ، وأعذب منهـا العواطف الغزيرة المتدفقة في صدر الشرقيّ . وكل ما في الشرق من جبال وأودية ، من مروج وسهول ، من أنهار واشجار بهيّ بهج - وأبهى من كل ذلك وأبهج تلك المكارم الكامنة في ثنايا الروح الشرقية . والتاريخ الشرقي تاريخ مجد وفخر ولكنّ هنـاك شيئاً أعظم منه وهو الذكاء الشرقي الذي أوجد التاريخ

هلاّ ذكرتم يوم كانت بلادنا نبراس الامم وقائدة الشعوب ؟ هلاّ ذكرتم يوم كانت بلادنا مهد العلوم والصنائع والفنون ؟

على شواطئنا هـذه ، على شواطىء فينيقيا القديمة ، ترعرع الفكر البشريّ وأطلّ الرقيُّ من بين غيوم الجهل

والحول . كان البحر قبل الفينيقيين عصياً فعالجته همتهم القعساء فأطاع ، وسيرّوا فيه سفنهم طولاً وعرضاً حاملين الى بلاد قامت على شواطئه ثمرة اتعابهم الفكرية واليدوية ومبادىء المعارف الاجتماعية

انحنى الفينيقيون على الارض فشقّوا أديمها مستخرجين من احشائها الثروة والغلال ، وتصرفوا بالمياه الضائعة في جوفها فاستخدموها لتعزيز الزراعة . لمسوا الصخر فلبّى صاغراً ، وحدَّقوا في العناصر فانقادت لهم ، ومازالوا يكدّون ويستنبطون حتى وضعوا للمستقبل قاعدة ارتقاء متينة

نعم ، هنا ابتسم الرقي ابتسامته الاولى ، وهنا خطا التقدم خطوته الاولى ، ومن هنا نقلت مبادىء العلوم والفنون والصناعة والتجارة الى اليونان ، الى الرومان ، الى العالم

قبل فينيقيا لم يكن يعرف أهل الحبشة قيمة ما عندهم من عاج ومواد ثمينة أخرى فسارت اليهم قوافل الفينيقيين فانتبهوا وتيقظوا . قبل فينيقيا لم يعرف أهل الجزر البريطانية معنى التجارة ، وظلوا جاهلين وجود معادن بها يقوم غناهم حتى ذهب اليهم قدموس التاجر الفينيقيّ على ظهر سفينته السوداء

فالفتهم الى ما لديهم وعلمهم أساليب التجارة

قبل فينيقيا كان الفكر البشري محدوداً مقيداً عاجزاً عن ابراز نفسه الى عالم الوجود لصعوبة الكتابة الهيرغليفية. فلخص الفينيقيون تلك الرسوم الهيرغليفية المديدة في الحروف الابجدية جاعلين لكل مقطع صوتي حرفاً. ومن الحروف تتألف الكلمات، ومن الكلمات تتركب الجمل، وبين الجملة والجملة على صفحات الاوراق تتجلى الارواح، وتخفق القلوب، وتسيل الدموع، ويسطع الفكر الانساني بانواره الباهرة

كذلك حملت فينيقيا الى اليونان مبادىء الفنون المختلفة وعلّمت الامم أساليب الاستعمار. فهل نحن ذاكرون انه علينا أن نستخرج من مستقبلنا تاريخاً لا يخجل حياله التاريخ القديم ؟

* * *

لقد قال عنا أهل الغرب ما قالوا فدعهم يفترون : ان لكل أمة خطة سنتها أقدار الحياة وكل ما في الكون متموج الى الابد : فالارض متموجة وامواجها الجبال والسهول

والمياه والبحار متموجة وأمواجها دوائر ودُوَّام ومد وجزر

والاثير يتموج ناقلاً في تيه الفلك الاصوات والأنوار والحر والبرد

وفي المادة تتموج العناصر الكيماوية تموجاً عجيباً

والنفس الانسانية متموجة بعواطفها وأفكارها ورغائبها وأميالها

وكذا أحوال الشعوب تصعد وتنحدر، وترتقي وتنحط، وتتقدم وتتقهقر. فما من أمة بلغت شأواً من الحضارة بعيداً الا عادت تتراجع أو تتوقف عن المسير زمناً فيه تسبقها الامم الاخرى. غير أن هذه الموجات العمرانية الواسعة لا تراها وتثبتها الا العصور البعيدة

توقف الشرق زمناً فقال الغرب « هوذا الشرق في سبات عميق يشبه الموت » . لكن لم يلبث أن نفض الشرق عنه اكفان الهوان ونهض نهضةً أدهشت من كان يحسبنا في غفوة لا تعقبها يقظة . فبلغت اليابان اليوم مبلغ أرقى الامم في علومها وصناعاتها ونظاماتها وفي تأهبها لدفع الطوارىء

فلكت ناصية القوتين المائلتين : الادبية العلمية والوحشية الحربية . وها هي الصين المائجة بسكانها كالنمل تنهض بثورتها الحاضرة ، بعد جمود طويل ، نهضة يرجى منها كل خير . هذا في الشرق الاقصى : أما في الشرق الادنى فكلنا يذكر الثورة العثمانية وان لم تأتنا بكل ماتوقعناه من حسن النتائج . والخلاصة ان المطلع على تاريخنا منذ نصف قرن يعلم أن الفرق بين ما كنا عليه وصرنا اليه كبير

* * *

الثورة العثمانية ! تلك الحركة العظيمة غير الدموية التي أذهلت الغرب ، لم نستفد منها كثيراً لان الامة لم تشترك فيها اشتراكاً محسوساً ، بل كانت حركة عسكرية قُصر التبديل فيها على هيئة الحكومة لكنها لم تغير من أخلاقنا شيئاً . يجب أن تكون الثورة فردية داخلية قبل أن تصير قومية عمومية : ثورة في الافكار ، ثورة في المبادىء ، ثورة في الاحتياجات ، ثورة في المطالب ، ثورة في كيفية المعيشة . يجب أن نغير طبائعنا قبل أن نغير حكامنا ، يجب أن يعكف كلٌّ على اصلاح نفسه قبل أن يتصدى لاصلاح الجمهور .

يجب خصوصاً أن نفهم معنى التضامن وان تتكاتف ليس لغايات شخصية بل للخير العام والمصلحة العامة التي تشمل العدو والصديق والبعيد والقريب ، بل تشمل أبناء الوطن على الاطلاق . والتضامن من ارتقاء الجمهور بمثابة الاعتماد على النفس من ارتقاء الفرد . وما أقدر الذكاء والتضامن اذا هما مشيا جنباً الى جنب !

* * *

والآن وقد فرغت من الكلام فأعزُّ ما أتمنى هو ان أرى ابناء الوطن متحدي الكلمة ، موحدي الغاية ، مترابطين بالتضامن والتعاون ليعيدوا للشرق عزّه الغابر ومجده القديم

وتحيتي الاخيرة الى لبنان. لبنان ! يجب ان أنحني لهذه الكلمة العذبة المحبوبة

لبنان! هي كلمة واحدة ، هي لفظة صغيرة ولكن كل الحب وكل الرجاء فيها لانها اسم الوطن الغالي

لبنان ! الامواج الزرقاء الطرية تلثم قدمه والثلوج البيضاء الطاهرة تكلل جبهتهُ ؛ في صدره قبور الجدود والاحباب والتربة منه تعطف على بقاياهم عطف الامّ على رضيعها . وعلى

اكتافه يتنقّل أبناؤه الاحياء أقوياء بالهمة والنشاط والامل.
ومن هؤلاء ينتظر شبيبةً ذكية مفكرة عاملة ، ومنهم ينتظر مستقبلاً سعيداً وحياةً ومجداً

فليحي لبنان ، وليحي الشرق !

تكريم خليل مطران (١)

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك ١١٢ قبل الميلاد

جلس الامير على عرشه الذهبي المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتقدة ، فجلسْ القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد امامه وقوف الانصاب امام وجه الشمس

وبعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من انشادهم ، وتوارت

---

(١) ارسل هذه المقالة كاتبها اجابة لطلب سليم افندي سركيس الذي دعا شعراء العالم العربي وكتابه الى الاشتراك بتكريم خليل مطران بارسال نفثات اقلامهم لتتلى في الحفلة التي ستقام له لمناسبة الانعام عليه بالوسام المجيدي الثالث . وقد تليت هذه المقالة مع التعليق عليها في تلك الحفلة الفخمة التي اقيمت في سراي الجامعة المصرية تحت رعاية سمو الخديوي السابق عباس حلمي باشا وبرئاسة وحضور شقيقه الجليل البرنس محمد علي باشا الذي افتتح الحفلة بخطاب منه . وذلك مساء ٢٤ ابريل سنة ١٩١٣

انفاسهم بين طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء امام الامير وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة

« أيها الامير العظيم ، قد جاء المدينة بالامس حكيم من حكماء الهند ذو اطوار غريبة ومذاهب جديدة لم نسمع قط بمثلها . فهو يدعو الناس الى الاعتقاد بتقمص الارواح من جسد الى جسد ، وانتقال النفوس من جيل الى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير الى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه امامك »

فهز الامير رأسه وقال مبتسماً

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فادخلوه لنسمع حجته »

ولم تمر دقيقة حتى دخل القاعة كهل اسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملامح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن اسرار عميقة واميال غريبة . وبعد ان انحنى مستأذناً، رفع رأسه وتلمّعت عيناه وطفق يتكلم عن بدعته ، مظهراً كيف تنتقل الارواح من هيكل الى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرّجةً بتأثيرات الامور التي تختبرها

متمايلة مع الامجاد التي ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها . . . ثم تطرق الى كيفية انتقال النفوس من مكان الى مكان ، باحثة عما تحتاج اليه من الكماليات ، مكفرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها ، مستغلّةً في بلد ما زرعته في بلد آخر

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الامير سيما الملل والضجر ، اقترب كبير الامراء من الحكيم وهمس في اذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث الى فرصة ثانية »

فتراجع الحكيم الى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً اجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود واسراره

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الانبياء ، تلفت الامير الى اليمين والى اليسار ثم سأل قائلا « أين شاعرنا فقد مرَّ زمن ولم نرهُ . . ماذا حلَّ به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ »

فقال احد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً في رواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين

نحو الشفق البعيد كأنه اضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده »

وقال احد القواد « قد رأيته بالامس واقفاً بين اشجار السرو والصفصاف فحيته ولم يرد التحية بل ظلَّ غارقاً في بحر افكاره واحلامه »

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجفانه وتتلاعب الغصات بانفاسه »

فقال الامير بصوت تلاحقهُ اللهفة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد اشغل بالنا أمره »

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر وظل الامير واعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الامير كطائر رماهُ الصياد بسهم فصرخ به الامير قائلاً « ما الخبر . ماذا جرى ؟ »

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً في

حديقة القصر » فانتصب الامير وقد علت سحنته سيما الحزن والكمد ، ثم خرج الى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا اطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان جلت لهم أشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الاعشاب كغصن ورد ذابل

فقال احد الاعوان « انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته فتعاهدا على أن يموتا معاً »

وقال احد القواد « لم يزل يحدق في اعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف »

وقال رئيس الكهان مخاطباً الامير « غداً نقبره في ظلال هيكل هشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان قصائده ، وتنثر العذارى الازهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيما فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً »

فهزّ الامير رأسه دون ان يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد أهملناه

اذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بانفاسه ، فاذا ما اكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك مناعرائس المروج والاودية .. ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه ، وابقوا قيثارته بين ذراعيه ، وان كان بينكم من يريد ان يكرمه فليذهب الى بيته ويخبر ابناءه بان الامير قد اهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً »

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ »

فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الامير العظيم »

فقال الامير « قلْ — قل ايها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميراً الى هذا العالم وتعيدهُ شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير؟ هل توقفه النواميس ثانية امام وجه الابدية لينظم الحياة شعراً ، وتعيدني لأُنعم عليه وأُفرح قلبه بالمواهب والعطايا؟ »

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح . فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً »

فانفرجت ملامح الامير وانتعشت نفسه ثم مشى نحو

قصره مفكراً في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح »

« ٢ »

« في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة ، وامير البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر الى الفضاء الصافي مفكراً في مآتي الاجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً اعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا امام الهيبة ابي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والامم التي سيرها الدهر من جوانب الاهرام الى قصر عابدين

ولما اتسعت دائرة أفكاره وانبسطت مسارح احلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة ميل الى الشعر فانشدنا شيئاً منه »

فحنى النديم رأسه واخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي فقاطعه الامير قائلاً « انشدنا شعراً احدث عهداً »

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد أبياتاً لاحد الشعراء المخضرمين

فقاطعه الامير أيضاً وقال « احدث عهداً ـ احدث عهداً »

فانحنى النديم للمرة الثالثة واخذ يترنم بمقاطيع موشح أندلسي

فقال الامير « انشدنا قصيدة لشاعر معاصر »

فرفع النديم يده الى جبهته كانهُ يريد ان يستحضر الى حافظته كل ما نظمهُ شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتل ابياتاً خيالية ذات رنة سحرية ، ومعان رقيقة مبتكرة ، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً ، وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً

فحدق الامير في نديمه ، وقد استهوته نغمة الابيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيدٍ خفية تجتذبه من ذلك المكان الى مكان قصيٍّ . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الابيات ؟ »

فاجاب النديم « للشاعر البعلبكي »

الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي .. كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الامير وولّدتا في داخل روحه النبيلة اشباح أميال ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها

الشاعر البعلبكي . . اسم قديم جديد اعاد الى نفس الامير رسوم ايام منسية ، وايقظ في اعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم امام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء !

وامحت هذه الرؤيا امام عيني الامير مثلما تتوارى الاحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره مردداً آية النبي العربي - « وكنتم امواتاً فاحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون »

ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » وزاد بعد دقيقة بصوت منخفض « انما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويجيء هذا العالم مغرداً فان لم نكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً الى موطنه »

وانقضى الليل ، فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس قميصه المنسوجة من أشعة الصباح ، ونفس أمير البلاد تمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحيـاة وأسرارها

نيويورك جبران خليل جبران

التعليق على مقالة

« الشاعر البعلبكي »

قدم سليم افندي سركيس هـذا التعليق الذي نشره في مجموعة ما أرسل اليه لتكريم خليل مطران بما يلي :

« لما جاءتني مقالة جبران افنـدي خليل جبران نزيل نيويورك سألتُ الآنسة مي ان تتلوها في الاحتفال فاجابت طلبي وبعد ان فرغتْ من تلاوة المقالة عادت فذيلتها بكلمات صاغها قلمها وابدعها خاطرها ، ولم يكن التعليق الذي ألقته حضرتها قد جاءني عند تقديم الخطبة الاولى للطبع فبادرت الى نشر كلمات الآنسة مي في هذا المكان قالت : »

* * *

هنا انتهيت من تلاوة ما كتبـه الشاعر اللبناني نزيل

نيويورك . ان الامير المصري فعل الآن ما ندم الامير القديم على اهماله . فجاء إحسان المليك إلى الشاعر البعلبكي مصداقاً لقول الحكيم الهندي : « كل ما تشتاقه الارواح تبلغه الارواح » . وصدى الكلمات الاخيرة التي تموّجت في مسامعكم، أيها السادة ، ما زال يرنّ على أبواب فؤادي مثيراً فيه ميلا الى الكلام ، منبهاً في اعماقه شبه قوة اكتفت بالاصغاء حيناً وهي تحاول الانقلاب الى همس، الى نغمة ، الى صوت إنسي ينقل الى عالم السمع سرائر التأثيرات النفسية

في هـذا الاجتماع البهيّ لم نسمع الا أصوات الرجال مادحة ، مقرظة ، معجبة ، شاكرة ، مفتخرة . وصوتي — الصوت الوحيد الغريب بين تلك الاصوات القوية الجميلة — انما ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب . والآن أريد ان اتكلم بنفسي وبصوت جنسي . أريد أن أضمّ الى صوت الفكر المظيم الذي ترتج لدويه دقائق الفضاء ، صوت القلب الخفيّ المرتجف الذي ترتعش لمروره ذرات الكيان وتطرب لصداه خفايا الارواح

لقد اهمل الامير القديم شاعره فمات وحيداً كئيباً .

لكن الامير القائم عطف على الشاعر البعلبكي فاحيا بعطفه هذا آمالنا بتقدم الآداب وارتقاء الافكار والعواطف. النبوغ قوة سامية يهبها الله من يشاء من افراد الامة؛ النبوغ شعلة الهية تضيء ظلمات الفوضى التي نجد آثارها في كل زمان ومكان لتضارب الآراء واختلاف المذاهب الفكرية. غير ان تلك القوة السامية تذبل وتجف وتموت ان لم يرطبها اعجاب الجمهور، وينعشها اكرم ارباب البلاد. الشعلة الالهية التي تحاول ملاشاة ما يحيط بها من الظلمات الغدافية تنطفىء ان لم تلق نسيم استحسان تتغذى من عنصره السري وتنمو بجوهره الناري. وان وجد في تلك الشعلة قوة ذاتية تغذيها وتنميها الى حين فهي لا تلبث حتى تحرق نفسها بنفسها مطفئة لهيبها بدموعها، مبيدة حياتها بيأسها، وكانت الشعوب بذلك خاسرة.

فاذا كان بينكم، ايها السادة، من يريد اكرام النبوغ الذي نحييه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال فليذهب الى بيته ويعلم ابناءه ترتيل القصائد الخليلية، ويضع بين شفتيّ صغاره رنات تلك الاسجاع الموسيقية، مضيفاً

اليها هذا الهتاف العذب الجميل : ليحي المليك عزيز النيل

***

والآن لديَّ باقتان : احداهما صغيرة انيقة جمعتُ زهراتها الزرقاء النحيفة على ضفاف نهر الاخلاص الجاري في سهول الاعظام والاجلال كما يجري النيل الفائض بدموع ايزيس في رياض اوزيريس . تلك الزهرات النضرة هي اشارات حبنا لسماء مصر العزيزة ، ورموز تعلقنا بالاريكة المعظمة، وراية شكرنا لدولتكم أيها الامير ،لتنازلكم الى تشريف هذا الاجتماع بحضوركم السامي

باقتي الصغيرة أضعها باحترام بين يديكم ، يامولاي ، فاذا حظيتْ بالقبول كنت بذلك سعيدة

* * *

والباقة الثانية اهديها اليك ايها الشاعر العذب . زهراتها - انظر اليها تعرفها — ليست الا نثرات من روحك الجميلة . نثرات من روحك وبها اعني حميتك وأحلامك ، دموعك وتنهداتك، يأسك وآمالك . كم من ليلة غادرتُ العالم الحسيَّ لاطير معك الى تلك العوالم البعيدة القريبة المملوءة أنوارا

وطرباً ! كم من ليلة قضيتهـا منحنيةً على كلومك الشعرية أراقبُ دماء أحزانكَ السائلة انغاماً وألحاناً ! كم من مرةٍ ملتُ أستنشق رائحة دموعك واحلل ألوان أشجانك ؛ ولاشجانك ألوان بديعة ساحرة كألوان الشروق والغروب ، ولدموعك اريج عطر مسكر كأرواح الزنبق والفل والياسمين !

هذه باقتي . خـذها . انما هي بعض ما تركته انغام شاعر كبير في نفس فتاة شجية .

وكلمتي الاخـيرة اوجهها اليكم ، أيها المصريون الكرام . نحن ضيوف عنـدكم ، نزلاء في بلادكم ، لكن كرمكم واخلاصكم ذكّرانا بان المواطن أوطان اذا تجاورت الأحبَّة . فعرفنا كنوز نفوسكم ، واقتبسنا بعض عاداتـكم ، وتعشقنا موسيقى لهجتـكم واحببنا مصر لاننا احببناكم .

هذه يدي اضمها الى الايدي السورية التي تمتد اليوم لمصافحتكم . ومياه سوريا ، وغاباتها ، وقممها الشماء تحييكم الآن بصوتي الفتاة — بصوت الفتاة المرتجفة الواقفة امامكم مرددة :

دوموا والكرم رضيع قلوبكم ، والعظمة ربيبة نفوسكم !

دوموا مصريين ، يا ابناء النيل العظيم !

المرأة والتمدن (١)

كلمة شكر اقدمها الى سعادة رئيس هذا النادي سكاكيني باشا وحضرات أعضائه الكرام . اني أشكر لهم حسن ظنهم بي ، والبي الدعوة التي شرفوني بها بغاية السرور. حسن أن يقف المرء في وسط قومه ، ولو مرة في العمر ، مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الاكثر حساً بما يتراكم على قلبه من الافكار الجميلة المضنية ، ساكباً امامهم بعض ما يجول في نفسه من الاماني العزيزات والرغبات الحارات

ناد شرقي يزينه حضور شرقيون . ان نفسي الشرقية لتهتز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلم بصراحة وثقة كأني الطفلة الاولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية في انظارهم وابتسامة

(١) القيت في حفلة أقامها « النادي الشرقي » في العاصمة ليلة الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٩١٤ امام جمهور غفير من اعضاء النادي والسيدات زوجاتهم وبناتهم

التشجيع المرتسمة على شفاههم . ولا محل للعجب اذا تجاسرت على الكلام في ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر . ان الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ، بل ان جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتمطيها جيرته مجداً وفخراً

الموضوع

أيها السادة والسيدات . نحن في فصل الربيع والحياة تنبض بقوة في كل جزء من اجزاء الكون . ونيسان رسول الجمال ونبي النور، يسلم انفاسه الاخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمة ايار ملك الورود . اذاً لست بحاجة للبحث عن موضوع احدثكم به فان الفصل المار بنا يوحي اليّ موضوعاً جميلاً : الازهار ، تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة الا وتشعر بانها ازاء سر غامض قد التف بألوان الحدائق والرياض وستر معانيه بعطورها . . على ان الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الاشياء . والازهار التي تفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل لان رطوبة الليل تذبلها . لكني سأبدلها بزهرة أوفر منها

جمالا وأتم شكلا وأدعى الى التفكير وأحرى باهتمام ذوي القلوب الغيورة الرحيمة . تلك الزهرة التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى وأسرار الحنان الذي لا يدرك ولا ينقضي . تلك الزهرة التي يعذبها ظمأ الحرية وتتجاذبها العواصف وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال فلا ينقصف غصنها ولا يلتوي . تلك الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل وتنقلُ من ذرية الى ذرية قبس الحياة العظيم .

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هي المرأة !

تقهقر نصف الانسانية

أيها السادة والسيدات

لقد طافت المدنية انحاء العالم وتلألأت انوارها في القارات الثلاث تباعاً : في الشرق حيث جعلت أحاديث الاقدمين الفردوس الارضي اتقدت شرارتها الاولى فكانت المدنية كالشمس بازغة من بلادنا . و بعد ان نقلت خطوتيها الاولين المجيدتين في آسيا وافريقيا تناولتها يد أوربا ورفعتها

في جو الجهل المظلم وهزتها كقبس سحري قائلة : « أنيري العالم ! » فاستنار العالم وغمرنا ضياء العلم الساطع . وكأني بالمدنية ذكرت انها اكثرت من الحسنات الى العالم القديم فذهبت تسعى الى ما وراء البحار البعيدة ، في ذلك العالم الجديد الذي لا تقاليد تقف عثرة في طريق نجاحه ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة تجعل الحياة على عاتق الاحياء عبئاً ثقيلاً . في ذلك العالم البكر الذي قال فيه أحد كبار المفكرين « ان كولمبس اكتشفه بينا كان لوثر يحاول هدم العالم القديم

أجل . لقد طافت المدنية انحاء العالم، ولكن ما حالتنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر وعلومهم وفنونهم واساليبهم وكيفية معيشتهم الا ان الشقاء ما زال شقاء . ما زلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي والعاهات الاخلاقية على تعدد انواعها. وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والاوطان تشقى بابنائها، والعائلات تتعذب بافرادها ، والافراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة . كلا ! ان المدنية

لم تأت بتمام واجبها بعد ولم تصلح من الاحوال الا البعض اليسير أو المتوسط . وانتم ايها السادة والسيدات تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة . ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس الا تقهقر نصف الانسانية ، هو جهل المرأة

قال هوجو : ليس الرجل وحده الانسان ولا هو المراة وحدها ، بل هما الانسان والانسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ولا يصير عدداً كاملاً الا اذا أضيف اليه النصف الآخر . لا صحة للمرء الا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل الا بسعادة المرأة

تاريخ المرأة استشهاد طويل :

كيف كان يراها المتقدمون ومنهم افلاطون

سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لوكان للدهور لسان لأ نبأتك بما يدمي الفؤاد . المرأة ! لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتياً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكا للرجل

يستعمله كيفما شاء، ويهجره اذا أراد، ويحطمه اذا خطر له في تحطيمه خاطر. كانت بعد ذلك عبدة شقية وأسيرة ذليلة، ثم ارتقت مع مرور الاجيال الى درجة طفلة قاصرة، الى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ، الى تمثال بهرجة تتراكم عليه الاثواب الحريرية والجواهر الثمينة. ومن منا يدري بما كانت تستره الاثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم، ومن أغرب الغرائب انها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً. كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين، تحجرت منهم القلوب وصمت الافهام فهم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة. لكني أرى الامر عجيباً، بل فظيعاً، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم. لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة الا جمال جسدها وليس في قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد، وجميعهم متفق على تسميتها الشيطان الجميل أو ينبوع المسرات السامة. وشعراء اليونان، أسخيلوس وأوريبيدس وغيرهما، يسمونها

ــ ببساطة كلية ــ « بلية العالم » . أما الفلاسفة فأكتفي بان أذكر هنا كبيرهم افلاطون ، افلاطون الالهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر امة باسرها ، افلاطون ذا الاحلام الغامضة والمبادىء السامية الذي لم يترك موضوع اصلاح سياسي أو أدبي الا عالجه رغبة في اسعاد العالم ــ ، افلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة ولم يهتم في درس اخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية . ماذا أقول : ان افلاطون هذا قضى حياته آسفاً لانه ابن المرأة وكان يصرّح بازدرائه بامه ، ويعتقد أن من كان جباناً من الرجال في هذا العالم فعند ولادته مرةً أخرى تتقمص روحه في جسد حيوان أو في جسد امرأة . . . وما علم افلاطون ان امرأة ستعلّم الفلسفة الافلاطونية الجديدة في « مدرسة الاسكندرية » وان تلك المرأة لا يمنعها شبابها الغضّ وجمالها الرائع ان تكون أعلم علماء عصرها . تلك هي الفتاة هيباثيا ابنة ثيونوس الرياضي الشهير التي قتلت رجماً في شوارع الاسكندرية في أوائل القرن الرابع فذهبت شهيدة علمها واخلاصها ورغبتها في اشهار التعاليم الافلاطونية الجديدة

أول من رفع شأن المرأة

صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الاسلامية

أيها السادة والسيدات

أول من عطف على المرأة واسمعها كلمات الاشفاق والغفران هو يسوع الناصري . وهو أول من سوّى بينها وبين الرجل اذ جعل لهما خطة واحدة تفضي الى ثواب واحد، والا فللضالين عقاب واحد . على ان النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام

ثم جاء نبي الاسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب اذ حرّم وأد الفتيات وسوّاها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات . الا في الشهادة والميراث فان امرأتين تساويان رجلاً - وفي ما عدا ذلك فهي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون ان لها الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات ان يكن فقيهات وكانت أول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الاسلامية الذي قال لقومه :

« خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء »

وعليَّ أن أذكر هنا اسمي بتراركا ودانتي ، وهما أول من تلمّس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين . لقد جعلا لقصائدهما عرائس تتجلى فيهن ملكات الجمال الادبي ، وهما اللذان ترنما للمرة الاولى بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقاد ومقومة عثرات الجنس القوي . من منا لا يعرف لورا وبياتريتشي ؟ ان هذين الاسمين لا يفترقان عن اسمي بتراركا ودانتي ، وسيكونان أبداً المثل الاعلى الذي تود كل امرأة ان تكون صورة له . هذا المثل الجميل الذي مرَّ في مخيلة دانتي فصوره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع . ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير فجعل ابطال أكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة ، تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموج النور في الهواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبة بأسمى وأوجع عواطف التضحية ؛ وكذلك كانت النساء في روايات كورنايل ، وكلكم ذاكر بلا ريب بواين وكاميل وشيمان . . . ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري تلك القرون من رأي شكسبير وكورنايل، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة، ساخراً بها ان لم يكن طاعناً فيها . وقد لخص بوسويه أسقف موو أفكار معاصريه وأوردها في جملة واحدة إذ قال بجديته الجبروتية المشهورة :

« خلقت المرأة من ضلع زائد في جنب الرجل ، فلهذا السبب هي عقيمة لا ذكاء في عقلها ولا ادراك في نفسها »

رحمة الله عليك يا بوسويه ! انك لم تكن نبيها ! أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا أمر لا رأي لي فيه ـ غير اني افضل أن تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من أن تكون ـ كوتليتا ـ مصورة . وأما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فلست متولية إثبات هذه المسئلة التشريحية . . . أو اللاتشريحية

لذلك كانت المدنية عرجاء

أيها السادة . لننس هذه الاقوال العتيقة ولننظر الى أحوال الحاضر . ان النهضة النسائية تمتد يومياً في أقاصي المسكونة . انها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبىء بأن

مدنية الامس العرجاء التي لم تتكىء الا على جنس من الجنسين هي غير مدنية الغد المتمة بتحقيق الاماني . ليست مدنية الغد مدنية الرجل وحده ، بل هي مدنية الانسانية ، لانَ المرأة آخذة بالصعود الى مركزها الحقيقي بقرب الرجل . ان موجة النور ، نور الارتقاء النسائي ، تزداد ارتفاعاً واتساعاً مع الايام . في فرنسا وانجلترا واميريكا والمانيا وايطاليا تجاهد المرأة جهاد الابطال في سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في أسوج ونروج وفنلندا وزيلندا الجديدة وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرجل سواء أدبياً ومدنياً وسياسياً أيضاً . وفي كل من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلا ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلّت الجرائم ، وخفت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى أخلاق الامة وفي حالتها الصحية جميعاً

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل

ما تفعله اليوم المرأة

التي قالوا انها لا تصلح الا للخدمة

كم قالوا فيها أنها لا تصلح الا للخدمة البيتية والزينة الجسدية وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا أنها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كريم يحاول افهام الرجل ان في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة . وكم قالوا أنها كاذبة خبيثة وان الصدق والاخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب ، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية . وكم قالوا انها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسئولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة . وكم قال فولتر ان فكرها سريع العطب وانه يتحطم تحطماً اذا حاول استفهام ناموس علمي . غريب ان يقول فولتر هذا القول ، هو الذي استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقته مدام دي شاتليه ومعربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية .

ثم اذكروا مدموازل لابلاس ، وماري كوالسكي ، ومدام كوري ، وعشرات من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحرف المختلفة . في فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن حاملات في قلوبهن المسئولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والاوجاع داميات القلب، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك في انجلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الاربع مئة الف . ويقول الاحصائيون ان في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الاشغال العمومية

قالوا ان العلم يذهب بملطها

وكم قالوا ان المعارف لم تخلق للمرأة وان العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها وانه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل، وها نحن نراها اذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة واجلالاً للرجل . انها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها واعلاء

مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف ان لها فخراً رئيسياً واحداً وهو ان تكون (أماً) بكل معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة. وهي وحدها تعرف انها كانت الى اليوم والدة الجسد فقط وتحاول أن تصبح أم الروح أيضاً ، أم العواطف وأم الافكار وأم الميول، والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى

قالوا لا عقل لها

وكم قالوا انها لا عقل لها وان حياتها سلسلة أهواء متتابعة وتقلبات صبيانية تافهة وها أننا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد ، مغرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة . انظروا الى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال وأكثر، روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية [1] كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حباً بمصلحة وطنها، واشتركت في جمعيات تظن أن في تأييدها خيراً للبلاد

(١) سرعان ما صدقت هذه النبوة !

انصار المرأة ومن هم

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ولكن انصارها اكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة . بل هم اسمى وأشرف رجال زماننا . انهم يحترمون جهادها، ويعترفون بحقوقها، ويقرون بما تأتيه من الاصلاحات الباهرة ، ويعجبون باقدامها وثباتها ويرون في نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الانسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هيجو هو القائل ان تحرير المرأة يحل اكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وانه ينتظر منها وحدها الغاء الحرب في العالم ؟

شرارة الحياة في مصر

صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل ايضاً ان القرن العشرين هو عصر المرأة . ولقد صدق في نبوته ! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الاقصى ، في الصين واليابان ،

وفي تركيا. وها اني أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضاً حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم و بألسنتهم وبعثلهم ، وجل ما يتمنون هو أن تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بامرهن. أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر في مصر تشتعل شرار الحياة (١) والا فماذا يعني وقوفي بينكم ايها السادة ، وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء اصغاء تاماً وتشجيعاً قوياً وتفكيراً عميقاً ؟ . اتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال ، وتستمعون اليّ باشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور. النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للاصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود الا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم يرتفع الآن آتياً من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء ، من اقصى أقاصي الخليقة العجيبة ، آتياً من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً: أيها الرجل! لقد أذللتني فكنت ذليلاً. حررني لتكن حراً ، حررني لتحرر الانسانية !

---

(١) لقد أضرمت الشرارة ناراً في هذه الاعوام الستة !

في طنطا[١]

أيها السادة والسيدات

لم أكن أعرف من طنطا الا اسمها ومحطتها يوم شرفتني الجمعية بدعوتها، فشعرت بشيء يشبه العاطفة التي تعتري المرء عند اقباله على المجهول. ولكن ما لبثت ان عرفت عن هذه المدينة أشياء كبيرة في معناها: علمت ان أهل طنطا قوم تؤلف بين قلوبهم أخوة شرقية كريمة، ويوحد كلمتهم حبُّ الخير والرغبة في نفع الغريب والقريب على السواء. عرفت ان النساء فيها مثال جميل للمرأة الشرقية الجديدة، وانهن يسابقن الرجال في اغاثة الملهوف والأخذ بيد البائس. عرفت ان هذا الاجتماع ملتقى عدد عديد من خيرة القوم يلتفُّ حول مدير ممتاز جامع لصفات الجندي الباسل والحاكم الحازم

أما قاموس الاخبار الذي جمعت منه معلوماتي هـذه

(١) ألقيت في الحفلة السنوية التي أقامتها في طنطا جمعية الاتحاد والاحسان السورية للسيدات مساء ١٤ يونيو سنة ١٩١٤

فهو ذاك الذي يعرف كل النـاس وكل الناس تعرفه ، هو الحركة الادبية الدائمة سليم افندي سركيس

جئتكم بالتحية فاقبلوها وحيوا معي الهمة النسائية التي جمعتنا هنا لتطلعنا على ملخص أعمالهـا الجليلة . حسنٌ أن تكون المرأة عالمة ، وأحسن منه أن تكون فاضلة . جميل أن تكون المرأة مفكرة وأجمل منه أن تكون شفيقة رحيمة . فحيوا المرأة التي لا تكتفي بالامومة الجسدية ، بل تريد أن تكون فوق ذلك أماً للشريد الحزين الذي لا أم له . حيوا ينبوع الحنان والجود المتدفق على الاغراس التي طالما أوجعها ظمأ الفاقة وقد أوجدتها الطبيعة في تربة جافة ، وجردتها من عطاياها فجاءت المرأة تحنو عليها . حيوا تلك الايدي النحيفة التي تحسن الى الروح والجسد معـاً . أيدٍ قوية على ضعفها تعمل لخير الانسانية بجد ونشاط كأنها أيدي رجال . حيوا معنى الاحسان السامي الذي يرفع النفس من مستوى الانانية الضيق ويجعلها مشرفة على آفاق الانسانية الواسعة حيث تنمو وتنبسط بالاشفاق والحنان

هللوا للمحسنين ، انهم جبـابرة العصور ورافعوا

الانسانية من هوة الذل والشقاء . لهم نصبت الانسانية أجمل التماثيل ، وعند أقدامهم سكبت حار الدموع ، ولقد كافأتهم بان جعلت أسماءهم مقرونة أبداً بما لديها من المعاني الخالدات : الاحسان والشكر والفخر العظيم

ايها السادة والسيدات

أما الآن وقد تعارفنا فلنا ان نتحادث قليلاً فتعالوا معي الى وطن الاوطان ومهد العالم ، الى الفردوس الارضي ، ولا تخافوا مشقة السفر فهو سفر خيالي . أتذكرون الشجرة الشهيرة ؟ هناك تجتمع الآن أفكارنا حول تلك الشجرة المسماة شجرة معرفة الخير والشر

موضوع مشترك بين الجميع لا يجهله كبير ولا صغير ، ولكني أعترف بكونه خطراً لانه يكشف عن حزازات قديمة في الصدور وينبه الرجال والنساء الى الدفاع كل عن أبناء جنسه ، فالرجل يقول : هي ! والمرأة تقول : هو !

لا تغضبي يا سيدتي حواء ، وهوّن عليك ، يا سيدي آدم ! ان تفاحتكما ضرورية للعالم وما كان أشقى ذراريكما لولاها . أنها رمز المعرفة ، وهل في وسعنا ان نتصور الانسان

جاهلاً والكون مجهولاً الى الابد ؟ لولا المعرفة ما كان علم ولا كان أمل ، ولا كانت فكرة الاستقلال ورغبة الارتقاء ؛ وان لم تكن هذه فماذا يبقى الله من الحياة المعنوية ؟

في اعتقاد الاقدمين ان المعرفة تصير الانسان كإله يعرف الخير والشر . وكانوا يخافون كل عالم ويرمونه بالسحر لانه سرق شيئاً من خصائص الآلهة : فيا له من اعتقاد عظيم تضمن أمل الارتقاء ! كانت المعارف صعبة المنال على طلابها لانها لم تكن عمومية كما هي في عصرنا ، بل محصورة في أشخاص لهم أتباع وتلاميذ قد وقفوا حياتهم على حب العلم والحكمة . فاذا ما رغب امرؤ في العلم هجر بلاده وثروته وذهب الى أحد الفلاسفة واندمج في عداد تلاميذه جاعلاً غرضه الوحيد استماع أقوال معلمه والسير بموجبها . وبعد هذا التضحيات أتظنون انه كان يطمئن على أحواله ؟ اذكروا ما فعلته كسانتيبا زوجة سقراط تسمعوا الجواب على هذا السؤال !

كانت مدرسة سقراط من أشهر مدارس الماضي ؛ وكانت كسانتيبا زوجته ثرثارة ، ضيقة النفس ، سطحية

المدارك ، ترى العلم جنوناً وتحسب زوجها معتوهاً . ففي أحد الايام اذ كان سقراط يخطب في تلاميذه اخذت زوجته تضحك منه ، ولما لم يكترث لذلك انقلب ضحكها غضباً وطردت الاستاذوالتلاميذجميعاً ساكبةعلى رؤسهم الماءالبارد.
فتذمر التلاميذ وسألوا الاستاذ ان يكفيهم شر زوجته فاجاب سقراط المسكين : « دعوها تفعل ، ان شراستها علمتني الصبر والحكمة : » طوبى لك يا سقراط ! ولكن لوكان جميع النساء كمن ذكرنا لماكان جميع الرجال فلاسفة بل مجانين
أجل كان الاقدمون يخافون العلم والعلماء واثقين بان السعادة في الجهل المطبق والخمول النفسي . وعلى رغم ذلك فقد كان في وسط تلك الجماهير النائمة الهازئة المماكسة أفراد بلغوا أعلى درجات السمو الفكري . ذلك لان الانسان لم يخلق الا ليعلم . علم أولئك الافراد فعملوا وأورثونا ثمين الآثار في جميع دوائر المعرفة الانسانية ، ووضعوا الأسس الاولى لعلومنا الحديثة . نعم ان تلك الاسس هدمت مراراً لبطلانها واكتشاف ما هو خير منها ، ولكنه لا يسعنا إلا إجلال المنقوض منها والباقي لانه نتيجة علم كثير وعمل متواصل

أيها السادة والسيدات

لنا على الماضي امتيازات كثيرة . نعم اننا لا نستطيع أكل المعارف في نصف تفاحة كما فعل آباؤنا الأولون . ولكننا نمتاز على الاقدمين بامور جوهرية كثيرة . اننا نعرف الآن قيمة العلم وان المعرفة صلة الانسان بالاشياء والسلك الكهربائي الجامع بين ذكاء الفرد وبين المعنى الحيوي المبعثر في أجزاء الوجود ؛ وان على هذا السلك العجيب تفيض معاني الانسانية العظمى ألا وهي الاعجاب والحبّ والعمل . نعلم الآن ان الجاهل سجين نفسه ، أسير أنانيته ، مستقل بادراكه المحدود ، مكتف بدعواه ، لا يستقبل جديداً إلا بالطرد ، ولا يذكر حديثاً الا بالتهكم وسوء الظن . ولئن تألمنا من احتكاكنا المحتم به فانا نشفق عليه لضيق الدائرة الحيوية التي رضي بها ، كأن كل ما لدينا من الجمال والصلاح والثروة المعنوية لم يخلق له ، بل هو كائن لسواه !

انما امتياز عصورنا الاعظم هو فكرة التقدم، والاندفاع في سبيل الارتقاء . وتوفّر المعارف وسهولة نيلها لمن طمح

اليها، بعد ان كانت محصورة في افراد معدودين . لستُ من القائلين ان عصرنا هو العصر الذهبي الذي يحقق الآمال غير انه عصر عظيم وابن عصور عظيمة بتفكيرها وجهادها؛ عصر مملوء خيراً لطالب الخير وفيه من اسباب الراحة وسهولة المعيشة ما يجمل اللذات المادية والمسرات المعنوية، واقتباس العلم متوفراً لدى الفقير توفره لدى الغني . لقد انسعت العلوم وتعددت فروعها فاتسعت بذلك سطوة الانسان على الطبيعة وتعددت سبل العمل أمامه . الفلسفة تنبش أعمال العقول، والشعر يلمس أسرار النفوس، والموسيقى توقع همس الوجدان، والتصوير ينسج العواطف نسجاً ويرسم أدق خطوطها، فاليوم تحقيق أمنية الحكيم القائل: أيها الانسان اعرف نفسك ! لقد ارتقت الاخلاق، ولطفت الشعائر، ودقت الملاحظة، وافسحت فكرة الحرية المجال فتيسر لكل أن يهذب شخصيتهُ كما يريد بعد ان كان مكرهاً على سبكها في قالب جيرانه ومعارفه . كان وأد النساء حلالاً، وقتل الابناء جائزاً، وفن الاستعطاء

مقدساً . أما الآن فسلطة الأب والزوج محدودة ، والنفوس عزيزة عاملة تنال ما تنال بالكدّ والسهر

بالامس كان الناس اثنين : سيّداً مستبداً وعبداً ذليلاً يباعُ ويشرى كالانعام على غير علم منه . أما اليوم فبدأ العدل يُضعف قيود العبودية ، وصوت الحرية ينادي بالاخاء والمساواة . لقد اتسعت دوائر التجارة وارتقت الصنائع ، وتبودلت منافع الاقتصاد ، فحلّ السلام والامان — مبدئياً ! — اذ لا غزو يفاخر به ولا اغتصاب يسامح عليه . والسياسة تحاول تسكين الخواطر والاقلال من الحروب ما استطاعت . فما أبعد أيام نيرون ومارکس اوريليس والاسكندر والحروب الصليبية . حتى أيامك يا نابوليون ، حتى ايامك القريبة بعيدةٌ عن هذا العصر الذي يمنع الانسان ايلام الحيوان ويعلمه الاشفاق عليه (١)

يدعي الماديون ان العلوم وحدها سبب التقدم وعنوان الحضارة ، فمتى كانت الكيمياء والهندسة أساس المدنية ، ولماذا

(١) لم تمر ستة أسابيع بعد هذه المفاخرة الخطابية حتى فوجيء العالم بالحرب الكبرى . . .

لا نعتبر الصين اعظم بلاد العالم على الاطلاق لانها مكتشفة البوصلة ومخترعة آلة الطباعة والبارود ؟

ليس في استطاعة العلم الا تحسين أحوالنا المادية . انه يعلم الانسان استخدام الطبيعة وينمي ذكاءه نمواً شديداً ولكن لا سطوة لهُ على الاخلاق . وأنتم تعلمون ان العلم نصف الارتقاء والاخلاق النصف الآخر ، وان شرف المرء قائم بحسن أخلاقه وسمو مداركه اكثر منه بتعدد علومه وكثرة اطلاعه

. ايها السادة والسيدات

معنى المدنية عظيم مطلق . آت من اقاصي الاجيال متنقلاً بين أشور وبابل وفينيقيا والصين والهند ومصر وأثينا وروما . انه مجموعة العناصر العلمية والاخلاقية والحسية والعملية . كذا يجب أن يكون الانسان فيجمع في شخصه معاني الانسانية باسرها . ليست الانسانية عالمة أو طبيبة أو محامية أو تاجرة فقط . بل هي فاضلة معذبة مجاهدة فرحة حزينة فيلسوفة أديبة شاعرة باحثة فنية . هيَ قيثارة ذات الوف الاوتار توقع عليها اصابع الحياة الالحان الرائعة من

تشبيب وتأوه وتهليل ونوح وهتاف

لذلك نرى دواماً في النوابغ ذوي الشخصيات الفنيـة مزيجاً من عناصر الانسانية جميعاً. نرى الفيلسوف شاعراً أحياناً، وقد نجد عند الفني والشاعر من الحكمة واصابة الرأي ما لا نجده عنـد الحكماء أنفسهم؛ ذلك لان الشعر والعلم والفلسفة والادب والعمل ليست أموراً منفردة في ذاتها، بل هي تتلامس وتتجاذب لانها أساليب مختلفة تعبر بها النفس عن أحوالها المتتابعة. عناصر عظيمة كلها كامن في عقولنا، مترجرج بين ثنايا مشاعرنا، متدفق في أحلامنا وآمالنا، مكوّن ثروتنا الحيوية التي تفيض ساكبة حولنا نوراً وسناء

قال لايبنتز: ان النفس مرآة يجب أن تنعكس على مياهها الصافية صور الانسانية الراقية ومعانيها لتكون صورة مصغرة لها في الجمال والغاية. لقد عرفنا جمال الانسانيـة فما هي غايتها؟ هي أن ترمي إلى مثلٍ أعلى يلمع هنـالك في أقاصي الايام والاماني، مثلٍ أعلى ترى كل عسير في سبيله هيناً، وينهارُ في طريقها اليه كلُّ حاجز. غاية الانسانيـة المثل الاعلى الذي يعطي الحياة معنى لذيذاً، ويكسبها رونقاً

جديداً ، ويضرم في النفس ناراً تحرق الفاسد من ميولها ويؤهلها لأن تكون هيكل الافكار السامية والمقاصد الشريفة

إذن فالحياة الانسانيـة خطوات ثلاث . خطوة من الجهل الى المعرفة . وخطوة من المعرفة الى الارتقاء .وخطوة الى ذاك اللامع هنالك في أقاصي الايام والآمال : الى المثل الاعلى الذي نجهله ويحيينا جميعاً

والآن يأبى صوتي السكوت قبل أن يرتفع بتحية مشتركة لشطري الوطن الغالي : مصر وسوريا

مصر . سوريا

وطن واحد ما زالت الملاقات المتبادلة تزيده كل يوم توحيداً . السوري في مصر بين أهله وأصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه . أنات مياه النيـل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزمجر هناك بين المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنـا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء

مصر وسوريا ، همستان مختلفتان من لغة جميلة

مصر وسوريا ، كلاهما محسن وكلاهما محسوب ، لكن
تبادل الاحسان والمحسوبية يؤيد صداقتهما ، ويزيد في
اتفاقهما ، ويجعل قلبيهما خافقين على وفق نغمة واحدة

مصر وسوريا ، فوق صروحهما يخفق علم واحد يفاخر
الآفاق

مصر وسوريا ، صفحتان مجيدتان من تاريخ مجيد . بل
شطران جميلان عزيزان من وطن جميل عزيز

هذه تحيتي يا مصر : أنثرها في فضائك بملء صوتي .
وقلبي يردد : لتحي مصر ولتحي سوريا !

العجائب الثلاث [1]

كان بسكال يقول ان كلمة « أنا » غير مستحسنة ؛ ولكن اذا سمحتم لي أن أبدأ بالكلام عن شخصي قلت ان في نفسي ابتهاجاً

قد تتساءلون لماذا ، فانظروا الى اجتماعنا هذا تروا فيه الفرد الانساني مكملاً وناموس الانصاف نافذاً . لم يمرّ وقتٌ طويل على يوم كان الرجل الشرقي منكراً على المرأة ما كان يسميه « شر الدرس » ؛ يوم كانت المرأة عبدة تخفي جهلها وذلها تحت الاثواب الحريرية وتنسى قيودها الدهرية لاهية بالأساور والجواهر . ثم حرّرها الرجل قليلاً قليلاً وصار يدعوها الى الاجتماعات العالمية والسهرات الراقصة ، حاسبها زينة من الزينات المكملات لتلك الحفلات اللامعات . ولكن اليوم انظروا ! انظروا كيف علَت مكانة المرأة لديكم ! صرتم تدعونها الى حفلاتكم الأدبية

(١) ألقيت في الحفلة التي اقيمت في فندق كونتنتال مساء الجمعة ٢٨ أبريل سنة ١٩١٦ احتفاء بمرور ٢٥ سنة على انشاء مطبعة المعارف

وتعطونها فيها مكاناً رحيباً . بل صرتم جاعلين للفتاة الشرقية صوتاً — صوتاً صغيراً ، ولكنهُ صوت على كل حال — بين أصوات الشعراء والخطباء ، منشطيها الى ذلك بقوة ، ومرغميها على تناسي ما هي عليهِ من الضعف والقصور

هذا للمرأة السافرة . أما أختنا المحجوبة فهي كذلك مستشعرة بنسمة الحياة الجديدة . من خلال نقابها الشعري اللطيف تفتح عينيها كبيرتين على آفاق النور ، وفي نفسها تتولد ميول مندفعة نحو وجهة الارتقاء ، ورغباتٌ تائقات الى مظاهر الكمال

الرجل موجد الحركة النسائية عندنا ، والرجل منشطها ، والرجل مؤيدها . كثيرون من الافراد يدعون اليها ، والرؤساء يعطفون عليها . ولقد جاءتنا صحف الاسبوع بتعريب حديث لعظمة السلطان في تعليم الفتاة ، مع أحد مكاتبي صحف الفرنجة . ان هذا الحديث يزيد في قوة تأثيره العملُ المؤيِّد ، لانكم تعلمون ان اول فتاة تشتغل بالادب في السلطنة المصرية هي البرنسس قدرية هانم ابنة حسين الاول . فتاة لا يصرفها الجاه العالي والثروة المادية

عن ثروة الفكر وجاه التفكير

اننا نحب الزينة واللهو والجواهر والسهرات الراقصات ، ولكننا نحبها الحب الذي تستحقه فقط ، وفي نفوسنا ميول أشرف منه واعظم . عرفتم فينا ذلك ، وذكرتم ان الاستعباد قد ينقلب ثورة ، ففوضى ، وان ما من غضب أشد خطراً من غضب الضعيف اذا استشعر يوماً بقوته الكامنة . ذكرتم ان الطاعة الاجبارية ، طاعة الآلة البكماء ، لا قيمة لها وان الطاعة الاختيارية تنم عن ثقة وصفاء نية وتُنتج خيراً . ذكرتم ان الخوف لا يقطن الا في نفوس متصاغرة قد استنامت الى الامتهان ، ولا يولّد الا مودةً مكذوبةً ورياء ؛ وان الشعور بالحرية وحده يكوّن عاطفتي الاعتبار والاحترام وهما اسُّ متينٌ لكل ودادٍ شريفٍ مستديم . ذكرتم ان لا قيود للنفس العالية الا قيود الاخلاق الطيبة ، ولا جدران الا جدران الحرية ، تلك الحدود التي لا تهدَم لأن المرء يضعها لنفسه اختياراً ، اختياراً مشتركاً بين اللائق والواجب . . . ذكرتم كل ذلك ، وكان قد نسيه رجل العصور الماضية ، فقمتم تنادون بتعليم الفتاة وتحرير المرأة

ايها السادة ! لقد كنتم محسنين ، وكنتم خصوصاً منصفين

هذه حقوق للمرأة ، حقوق ابتدائية ، وان كانت جوهرية ؛ ولكن ، يُرضي المرأة أن تتناول هذه الحقوق كنعمة من يد الرجل لان التمتع بفضل القوي الكريم عزٌّ ودلال

ايها السادة والسيدات ،

لئن كان الانسان اعجوبة الخليقة ، كما يقولون ، وكان فكر الانسان أعجب ما في الانسان ، فان هذا الفكر قد ابدع عجائب ثلاثاً جعلت للحياة معنى ورونقاً جديدين ، وتلك العجائب الانسانية هي : الكلمة والحرف والمطبعة

من يستطيع أن يتصور الحياة خالية من الكلام ؟ نعم ، السكوت جميل ، وله اسرار هي حيناً مرعبة كظلمات اللجج وآناً لامعة كمقل الكواكب في الدجى . ولكنه كلامٌ في ذاته ، كلام تهمس به النفس بلا صوت ولا حركة ؛ وما السكوت القهريُّ الا بكمٌ او نوع من البكم

يجهل التاريخ ايّ الشعوب تكلم اولاً وكيف تكلم .

على أن سادتنا الفلاسفة جعلوا هذه المسألة موضوع مناقشات شتى بدأت في القرن الخامس قبل المسيح مع «ذيموقريطس» الذي كان يضحك دواماً من الجنون الانساني ، و « هيراقليتس » الذي كان يبكي حزناً على هذا الجنون ؛ ولم تنتهِ مع رينان الذي كان يكتفي بالابتسام المبهم قائلا : « لكل مسألة وجهان » . وفي خلال القرون الطويلة التي مرَّت بين ذيموقريطس ورينان قال الفلاسفة أقوالاً جمة هي كأقوال هذه الطائفة — طائفة انصاف الآلهة — عادةً ، كثير منها جميل ومفهوم ، والكثير الآخر جميل و ... كأنه مفهوم؛ خلاصتها تقسم الى قسمين : ففريق يقول ان الكلمة نتيجة ذكاء الانسان إذ شعر باحتياج الى التعبير عما يجول في نفسه ، فجرَّب الحركات أولاً ، وآهات الالم ، وعلامات الارتياح ، ولما ان شعر بنقص هذا التعبير عمد الى إبداع الكلمة واستعمل الصوت في ابرازها . والفريق الآخر يقول بل الكلمة استمداد غريزي في الانسان ، هي عمل الطبيعة بالذات ، وما تعبّر الكلمات إلاّ عن جوهر المعاني والاشياء . وقد زادت المدرسة اللاهوتية

على هذا في القرن الثامن عشر ان الكلمة أعظم من أن تحسب استعداداً غريزياً لأنها وحي إلهي

وسواء كانت الكلمة ابنة الطبيعة أم نتيجة الذكاء، فهي على كلٍّ مرآة الفكر وملخصتهُ ومهذبتـه . عند ما تأخذ خطوط التصور بالارتسام على صفحة الذهن فتتالى الصور، وتتوارد المعاني متزاحمة بلا ترتيب ، تكون حالة الفكر آنئذ حالة غليان أو طوفان . ولكن اذا أردنا اطلاع الغير على ما هو جارٍ في خاطرنا انتخبنا من الصور ما كان أوضح بروزاً ومن المعاني ما كان أقرب مجانسة الى شعورنا ، فجعلناها كلاماً، جعلناها وجوداً يلمَس بحاسة السمع ، تنطلق ذريراته الى فكر محادثنا ، قاهرة تلك الهوّة المحفورة بين البشر ، هوة السكوت والتباعد التي تجعل الانسان غريباً عن الانسان ، فتؤلّف صلة قرابة بين الروحين ،صلة التفاهم، ويصبح الغريبان متعارفين

تكلم الانسان فاراد تدوين تذكاراته . فاستخدم ما عنده من قوى الملاحظة والتقليد في حالتهما الاوّلية الخشنة وانشأ يرسم كل ما يقع تحت حسه ، ومن هنا تولدت الهيروغليفيات

القديمة الخمس . مَن ، يا ترى ، كان مستخلصاً من تلك الحروف الصورية الابجدية الاولى التي تناقلتها اكثر اللغات المعروفة لدينا ؟ هذا موضوع مناقشة ودية بين المصريين والسوريين . على ان الشائع ان الفينيقيين كانوا فاعلين . لحملها كبير تجارهم « قدموس » الى بلاد الاغريق في القرن السادس عشر قبل المسيح ، ثم نسخها الرومان عن الاغريق ، وتناولتها اللغات المتفرعات من لغتهم كالايطالية ، والاسبانية ، والبورتوغية ، والفرنساوية ، والانجليزية ، والالمانية كذلك . لأن الالمان يكتبون لغتهم على نوعين ، الكتابة الالمانية القوطية الاصل ، والكتابة التي يسمونها لاتينية (Die lateinische Schrift)

ومن أبجدية « قدموس » جاءت أبجديات اللغات السامية من عبرية وكلدانية وسريانية ، وابجدية تلك اللغة العزيزة التي لم تفقها الاغريقية واللاتينية جمالاً وانتشاراً . اللغة التي سُمعت نبراتها تحت الاعلام الخافقات في افريقيا حتى خط الاستواء ، وفي آسيا الجنوبية حتى جاوه ، وفي روسيا الى ما وراء غاسا ! لغة عنترة والمتنبي ولغة الموشحات الاندلسية ! اللغة

التي همسنا بكلماتها الاولى في المهد اطفالاً ، ولسوف تكون منها كلمة وداعنا الاخير. في صدرها تذكاراتنا وفي صدرها آمالنا، اللغة العربية !.

تكلم الانسان وكتب ، فأراد تخليد معلوماته وكانت المطبعة آلة التخليد. وكما أن الشرق كان موجد الابجدية كذلك كان الشرق سابقاً الى استعمال الحروف المطبعية. استعمل الصينيون الاكسيلوغرافيا (أي الطباعة على حروف الخشب) قبيل القرن السادس ، وانتقل هذا الفن الى أوروبا في القرن الثاني عشر ، وظلوا يستعملونه هناك على علاته تقريباً الى القرن الخامس عشر ذلك القرن الذي رأى الحروف المعدنية المتحركة وآلة الطباعة الاولى . ولكي ينصف التاريخ بين الرجلين اللذين أحسنا الى العالم فقد قسم الفخر بينهما وقال ان « كوستر » الهولندي كان موجد الحروف المطبعية المتحركة وان « جوتمبرج » كان مخترع آلة الطباعة ومثيل الحرف دقته الفنية الابتدائية

هذه هي المجائب الثلاث التي تعرفون أيها السادة والسيدات . ولا سبيل الى تخليد العجيبتين الاوليين الا بواسطة

العجيبة الثالثة . كذلك تقهر الآلة المعنى ، وتنتقم المادة من الروح ! ان الفنون جميعاً من رسم ٍ ونقش ٍ وحرف ٍ وهندسة في حاجة الى المطبعة ، لانها تخلد بدائعها وتعمل على ترويجها . تحتاج اليها الموسيقى ، ولا أعني الموسيقى العربية لانها كلها ألحان (mélodies) ، متراوحة بين السيكاه والنهاوند والحجاز كار الخ . ألحان كالنفس الشرقية ، عميقة حزينة ، ولكنها بسيطة تتناولها الأذن الموسيقية بسهولة كلية ، وبعد تمرين قليل أو كثير ، توقعها باتقان على العود أو على أي آلة شرقية اخرى. ولكني أعني الموسيقى الغربيـة وأهمّ قسم فيها ما يسمونه (Harmonie) . وثروة هذه الموسيقى وقيمتها في السوناتا ، والكانتاتا ، والأوبرا ، والسمفونيا وأمثالها مما لا يمكن نسخه بسرعة ووفرة ، وجعل اقتنائه ميسوراً للجميع الآ بواسطة المطبعة

لكنّ المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . الكتاب ! سنيّ المواهب ، مفجّر ينابيع النهى ! الكتاب ! ذلك الصديق الأمين ، تلك الثروة التي لا تفنى ، تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة ، التي لا تعرف جدالاً . ما اعذب عبوس

الكتاب في نفس محبّ الكتاب ! وما أخلصه جوهراً واكرمهُ استاذاً ، الكتاب الذي يرفعنا فوق صغائر الحياة ، ويعلّمنا كيف نُنمي فينا أشرف القوى الانسانية ، الاخلاص والذكاء والإرادة ؛ ويقودنا قليلاً قليلاً الى أعلى ذرى الادراك والعرفان ، الى أولمبس العظمة الشمّاء حيث أيوب ، وأسخيلوس ، وشيشرون ، ودانتي ، وسرفانتس ، والمعري ، وشكسبير ، وكنت ، وهوغو ، يسكبون في فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم فتتسع ، وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء !

اليوم عيد مطبعة المعارف الفضيّ . ولسوف تمرّ بها أعياد شتى من الذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والماس ، ان شاء الله ! تظهرُ في خلالها لمحبي الحياة العقلية من تلك الكتب النفيسة التي لديها سرّ انتخابها وسرّ اتقانها . تلك الكتب التي على الحرب ، وعلى الوجع وعلى الفاقة ، وعلى الظلم المحتم في الحياة ، وعلى الدماء والعبرات ، وعلى الشقاء ، وعلى اليأس ، وعلى كل بقعة سوداء تعكر سماء الانسانية ، تضع شعاع نور باهرٍ منبعث من كوكب الفكر الخالد !

سوريا الجائعة[١]

أيها السادة والسيدات

إذا التقى غريبان في ارض بعيدة ـ ولو كانت تلك الارض وطناً ثانياً كمصر العزيزة ـ فما هوَ يا ترى الموضوع الذي تتناوله أحاديثهما بداهةً ؟ ان ذلك الموضوع ينحصر في لفظة واحدة ، وهي التي تحوم الآن على لسان كلٍّ منا : الوطن ، الوطن القديم

أذاكرون أنتم حركات السفن في مرافئ سوريا وجمال الثغور المنثورة على شفة البحر كالشامات البيضاء ؟ أذاكرون أنتم ارواح الفلّ والنعناع والورد والصعتر والليمون والياسمين آتية تودع النازحين حاملة طيّ أنفاسها صدى تغريد الشحارير والبلابل ؟ أذاكرون أنتم لبنان القائم على الشط كهيكل

---

(١) هُيئت هذه الخطبة اجابة لطلب الامير ميشيل لطف الله بك رئيس نادي الاتحاد السوري (اليوم « النادي السوري ») لتلقى في حفلة كان النادي ينوي اقامتها في شهر مايو أو يونيه سنة ١٩١٦ لاغاثة سوريا الجائعة , ثم طرأ ما حال دون الالقاء

منصوب بين الارض والسماء وكأن انواره في الظلام شموع أوقدتها يدُ الآمال على مذبح الحياة ؟

كانا نذكر هاتيك الربوع بخشوع وتحنان لأن لكلٍّ منا مكاناً هناك محبوباً بما ترك فيه من أجزاء نفسه وما ابقاه له من تذكار . تذكار أيام المدرسة والتلمذة أو تذكار شهور اللهو والاصطياف ؛ ساعات تأمل لدى جلال البحر وعظمة الجبال ؛ ساعات انخطاف أمام تقلب الالوان وتعاقب النور والظلام تحت سرادق الافق ؛ اوقات أنسٍ وطرب قرب الينابيع والانهار ، ونغمات عودْ وشدو أصوات في قلب الغابات تحت الغصون النديّة . هذا بعض ذلك التذكار الذي يمتزج بذرّات القلب وينيلنا رغداً وتعزية الى آخر العمر

لكلّ سوريّ منّا معارف هناك ، واصدقاء ، وذوو قُربى . أما الذي ليس لهُ من عزيز بين الاحياء ، والذي ليس سورياً بمولده ونسبه فهو سوريٌّ برابطة أمتن من هذه جميعاً لأن روابط الموت أقوى من روابط الحياة : هو سوري بقبور موتاه !

الآباء والجدود، تلك هي روابطنا التي لا تنفك! الآباء والجدود، تلك الجفون التي أُسيلتْ على نورها وما فتئتْ ترى الكائنات بعيوننا! تلك الاشباح التي كانت أجساماً، ثم قضت ومضت لتلبث حيّةً بنا وفينا! أولئك الراحلون الذين ضمّت أرضنا رفاتهم الى صدرها العطوف وأنبتت عند جوانب مضاجعهم أعشاباً لدنة ترتعش في ظلّ السنديانة الكبيرة والصفصاف النائح في مدافن سوريا...

* * *

ولكن كيف أذكر أعشاباً نبتت على قبور الموتى وأنسى ان مساكن الاحياء قد خلت من أبسط الاقوات وأرخصها ثمناً؟ كيف أنسى ان ارض سوريا قد أمسكت خيراتها ففقدت الحدائق أشجارها وتجردت الغصون الباقيات في الغابة من اوراقها، وشغلت مكان جماعات الطير الصادح في جوّها كتائبُ الجراد المبيد؟ كيف انسى ان البحر قد سُدَّ في وجه سوريا وان ضرورة الحال قطعت بينها وبين أبنائها الغائبين؟ بل كيف أنسى ان الثريَّ هناك أمسى فقيراً، والفقير معدماً، والمعدَم جائعاً، والجائع معانياً نزعاً طويلاً

أليما يتركه جثة في قبضة الموت الأغبر؟

كلاّ ! لا انسى ان الشيخ الذي أنالتهُ المصائب والتجاريب حقوقاً على احترام الدهر لهُ قد مشى الدهرُ على شيخوخته وحقوقه وأماتهُ ميتة هي من اوجع الميتات واقلها كرامة : الميتة الغبراء

كلاّ ! لا انسى ان فضائل الصبر والتضحية التي امتازت بها بعض الامهات لا تقوم مقام الغذاء . فتقضي الام يائسة ويستسلم الطفل للبكاء وهو لا يدري أبكاؤه تخوّفٌ لمنيةٍ أقبلت عليه أم رثاء للقلب الوحيد الذي أحبه وقد حرمتهُ منه ميتة هي من اوجع الميتات ومن اقلها كرامة : الميتة الغبراء

كلاّ ! لا يمكنني ان انسى ان شباننا الممتلئين حياة وذكاء ونشاطاً ، شباننا أمل الغدِ وضمانة المستقبل ، يموتون هم أيضاً بلا مقاتلةٍ ولا مناضلة ولا جهاد — يموتون لان الحياة تتملص منهم قليلا قليلا حتى تتركهم جثثاً هامدات بميتة هي من اوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة الغبراء

آه ! ترى ماذا كنتم تقولون ، أيها الموتى ، لو كنتم

قائلين ؟ لعلكم تقولون « تجود الطبيعة على الطير بما يغذيه ، وعلى الشجرة بما يقوي عناصرها ، وعلى الافعى بتراب تسفهُ ولكنها ضنّت علينا فمتنا جائعين . ولو اكتفت بنا ضحية لسعدنا ولكننا سابقون للاحقين . إخواننا يتوافدون علينا في عالم الظلام جماعة بعد أخرى ولا نحن ندري ولا هم يدرون ما هذا الذي نذهب فداءً له . أليس من مغيث ، أليس من معين ؟ »

بسلام ، أيها الموتى ، ناموا بسلام وكونوا للاحياء فدًى. لقد سمع المحسنون أنينكم والمحسنون كثير . ان السوريين النازحين يحبون امهم الصغيرة سوريا القائمة وراء الازرق البعيد ويعرفون واجبهم في مثل هذا الموقف . وهم لما يوحيه اليهم الحبُّ ويفرضهِ عليهم الواجب لفاعلون

* * *

أيها السادة والسيدات

لئن كانت الانانية الخيط الذي ننسج بهِ أعمالنا اليومية فهناك احوال خصوصية تمرّ بنا وترغمنا على التحليق فوق الحياة العادية ، فوق دائرة الانانية الضيقة وما يشغلها من

اهتمام ركيك واعتناء سخيف . إذ ذاك نرتفع فوق نفوسنا ونُشرف على آفاق الانسانية الواسعة

بين الناس أفراداً كانوا أم جماعات ، فروق جمّة تلازم تغاير الطبائع وتفاوت الملكات والمواهب . ليست طبقة المحتاجين بطغمة ملائكة ؛ وكثيرون من طالبي الاحسان لا يستحقون المساعدة لانهم انما يعيشون للكسل والخمول والتبذير اتكالاً على كرم الآخرين الذي لا يعتبرونه كرماً بل ضعفاً وبلاهة ، لهم ان يستغلوها تارة بالبكاء وطوراً بالتهديد . فالاعراض عن هؤلاء وتركهم للعوز يربيهم فرض واجب يوازيه أهمية واجبُ البذل عند الحاجة الصميمة التي لا تكلف فيها ولا احتيال ، ولا هي تُستعمل واسطة لتحقيق الاطماع وارضاء الشهوات بلا عناء

أمة بأكملها تموت جوعاً هي الامة التي خرجنا منها وما زلنا ندعى باسمها . أمةٌ بأكملها تحتاج الى القوت وقد تعذّر عليها العمل لانها حُرِمت وسائله ، فهل ننتظر منعاها جامدين أم نسعى جهدنا الى الاغاثة التي تفرضها علينا لا أريد أن أقول الوطنية فحسبُ، بل تفرضها علينا أيضاً تلك الوطنية

الكبرى التي ترفع المرء فوق نفسه ، والاقوام فوق انانيتها، لتربطها برابطة الانسانية النبيلة السامية

للأديان أئمتها وكهنتها، وللسياسة زعماؤها ومؤيدوها، وللحروب قوّادها وجيوشها ، وللعلوم مكتشفوها وموجدوها ، ولكلّ مذهب فلسفيّ أو اجتماعيّ أو فنيّ او فكريّ محبذوه ومروّجوه ، ولكلّ جنسيةٍ عصبيتها وكبرياؤها؛ ولكن هناك جنسية واحدةً ، بل مذهباً واحداً، بل ديناً واحداً ، بل جامعة واحدة لا أئمة لها ولا معابد لان كل فردٍ نبيل كاهنها ، وكل قلب معبدها ، وكل عاطفة بخورها ، وكل فكرٍ قائدها . هي الجنسية التي تشمل الجميع بالمواساة والرعاية عندما تتحارب الجنسيات بالمطامع والاهوال . هو المذهب الذي يضمد الجراح هامساً بكلمات العطف والسلوى حين تتنافس المذاهب في التخريب والطغيان . هو الدين القائل بالصلح والسلام يوم تتقاتل الاديان للتفوّق والغلبة . هي الجامعة التي يهتف بها حتى الظالمون والجناة ليستميلوا اليهم الانتباه والعطف العام : جامعة الانسانية العظيمة

فاليكن ، أيتها السيدات ، اسوق الكلام أولاً . فكم استخدمتن ابتسامتكن في اسواق الخير وأعمال الرحمة تشترين بها قوتاً للجائع وكساءً للبائس. وها قد جاء يوم من أخطر الأيام فيه تحتمت عليكن المونة والمباراة في الاستجداء

الى السوريين في جميع أقطار الشرق والغرب ، والى كل محسنٍ من أيّ جنسٍ ودينٍ ومذهب ، تسير أنة سوريا اليكم أيها السادة ، وكلكم قادرون . كونوا الشجرة الكبيرة ذات الغصون الخضراء التي تُظلّ الشقيّ ساعة استعارِ الهاجرة ! كونوا الينبوع الصافي ذا الانشودة الفضية الذي يروي المسافر في الواحة الخصبة بعد قحط الصحاري وجدب القفار ! كونوا سوريين بقبور الآباء الاقدمين وكونوا انسانيين برابطة الانسانية الواحدة ! بل كونوا الآن تلك العاطفة التي تدبُّ في الجنان اشفاقاً ، وتتكوَّن في الضمير واجباً ، وتبرز في العمل تدبيراً ، وتنقلب بالتنفيذ فائدة فتكون نتيجتها حياةً !

كونوا اولئك جميعاً ولا تفتحوا بالابطاء قبوراً جديدة !

حفلة «ثمرة الاتحاد»[1]

أيها السادة والسيدات

اجتماعنا في هذا المساء وفي هذا المكان بسمة من البسمات القليلات بين عبرات الانسانية الكثيرات . جئنا نقول لليتيمة الفقيرة «لستِ وحيدة في العالم بل كلنا أهلكِ وذووكِ »

كم من صورة وجيعة ترسم هذه الكلمة البسيطة «اليتيمة الفقيرة» ! من كان يتيم الوالدين كان يتيم النفس . كلُّ ما اوجدتهُ الطبيعة في قلب الآباء من عناية وحنان لا يعرفهُ اليتيم . فما أشقاه ، لا سيما فقيراً يذوق مع مرارة الوحدة في الحياة مرارة ذلٍّ يرافق الفاقة ، ومرارة الجهاد وثقل المسؤولية المضنية

وما أحرج موقف الفتاة اليتيمة ! ان الرجل مجاهد

---

(١) ألقيت هذه الكلمة في الحفلة التي أقامتها جمعية «ثمرة الاتحاد» القبطية لمدرسة اليتيمات في دار الجمعية بقصورة الشوام بشبرا ليلة ١٦ يوليو سنة ١٩١٦

مناضل طبيعة ووراثة . لا يرتد أمام المسؤولية ويبتهج بوحدة الرأي والاستقلال في العمل . أما المرأة — المرأة الشرقية خصوصاً — فميالة بطبيعتها ووراثتها الى الانزواء والخضوع والاستكانة فهي تتوجع بعامل الاحوال المتلاعبة بها اذا ما طلبت مكانة أوفق لذكائها ونزعاتها . فماذا نقول فيها اذا هي أرغمت على المجاهدة طلباً للرزق ، وسداً للعوز ، وبحثاً عن مكان لها في نور الشمس وسط تزاحم هذا المجتمع المتدافع المخيف ؟ كم من عبرة تذبل عينيها ، وكم من ألم يفطر قلبها ! وكم تذوق في وحدتها من طعوم اليأس والهوان ، وكم تنادي الموت وتستعطفه ان يهرب بها الى حيث لا تعاني ظلم الحياة وظلم الاحياء !

والمجتمع لا يعرف من ذلك شيئاً ، ولو عرف تفاصيل تلك الحياة الصغيرة الشقية لما همّهُ أمرها لانه مسوق بهمومه ومطامعه وله من دموعه وحسراته ما يجعله في شاغل عن دموع الآخرين

لذلك كان المعتنون بهؤلاء الصغيرات ، العاطفون على اليتيمات عطف الآباء ، خليقين بكل تنشيط وكل ثناء . غير

ان القلوب الكريمة التي تدفعها الرحمة وحب الخير الى القيام بهذه الاعمال المشكورة لا تنتظر من الخارج تنشيطاً لانه يأتيها من أعماقها الطيبة. ولا هي تحتاج الى الثناء لانه ينبعث من تلك العاطفة الكبيرة التي لا اسم لها والتي تغمر الفؤاد بعد اتمام الواجب نحو المحتاجين من اخوانه

أما الاحسان الى الجميع على السواء بصرف النظر عن فروق الاجناس والاديان فهو أعلى درجات الاحسان . لان الانسان ان كان غريباً عن أخيه بحواجز لم يكوّنها وقد لا يريدها — فهو قريب اليه بارث البشرية الاكبر : الالم والبكاء

قالوا ان الاشياء العظيمة تنحدر دواماً من الاعالي ، وما ذلك الا تملق للقائمين على رأس الهيئة الاجتماعية. ولكن أشياء كثيرة تتعالى آتية من العمق . وهل من محيط أدنى مستوًى وأعمق قراراً من البحر ؟ والبحر مستودع اللآلئ والعجائب ، والبحر مرضع الينابيع والانهار ، والبحر ينبوع فيح تمتصُّ منه الشمس ما تعقدهُ في الجوّ غيوماً لتهطلهُ على الارض بركة وخيراً

أنت يا ابنة الفاقة واليتم والالم ، أنتِ البحر الانساني لانك الا كثرية ولانك من المجتمع المرتبة الدنيا . ومن أعماقك المجهولة يستخرج عطف المحسنين ذكاء وقاداً ونبوغاً عجيباً

كفكفي عبراتك ، أيتها اليتيمة ! لئن ضاعت دموع كثيرة تسكبها الانسانية في الظلام تحت لواحظ الكواكب الصامتة ، وبدّد الهواء جزافاً زفرات تنبعث من أقاصي النفس كأجزاء منها ـ فأنتِ سعدتِ بالاهتداء الى القلوب الشفيقة ، ووجدت عند الغرباء عطفاً قد يفوق عطف الأقربين

في ظل الجود والحنان انمي شاكرة ، يا ابنة الألم ! ثم اخرجي الى عالم العمل والافادة قوية جادّة . والعين الابدية التي ترى كل شيء من وراء النجوم تحصي الحسنات ولا تنسى لـكريم ما يحمله الى القلوب المصدوعة من المعونة والسلوى

البعث العتيد[1]

يقول الفرنسيون ان اسبانيا لم تبعث اليهم الا بملكات صالحات . أما نحن أيها السادة ، فقد عرفنا اسبانيا وقد اعجبنا بها . عرفناها بمن أعطتهم من بنيها الى العالم الروماني من فلاسفة وشعراء وفقهاء وخطباء وامبراطرة . عرفناها بآدابها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة . وعرفناها بمساعدتها لذلك المقدام الباسل الذي ركب من البحر جواداً حروناً وما عاد من الشواطىء المجهولة الاّ وقد اكتشف للعالم القديم عالماً جديداً ، كريستوف كولومب

عرفناها بتاريخها الطويل الكثير الحماسة الكثير الجهاد . عرفناها بما طوي عليه الروح الاسباني من الفروسية

(١) كتبت هذه الخطبة بالعربية ثم لخصت بالفرنساوية وتليت بهذه اللغة في الحفلة التكريمية التي أقامها طلبة الفلسفة لجناب الكونت دي جلاررا المستشرق الاسباني يومئذ استاذ الفلسفة في الجامعة المصرية، عند انتهائه من تدريس تاريخ المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان. وقد اقيمت الحفلة في حديقة فندق شيرد برآسة سمو البرنس حيدر فاضل مساء ١٣ ابريل سنة ١٩١٧

وطيب العنصر ، من علو الهمة ودماثة الخلق ، من توقد الفكر ودقة الفهم . واعجبنا بما فطر عليه الاسباني من التضحية في سبيل الوطن والحب الشديد للحرية والاستقلال

الا أن لاسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة المصرية لانها اعطتنا استاذاً من أمثل بنيها ، وهي حسنة لا تقابل الا بجميل الثناء. فلنحيّ اذاً اسبانيا الكريمة الجميلة في شخص استاذنا الاسباني ، ولنحيها في شخص ممثليها الفاضلين دون كريستوبال ڤالين ومسيو دي كاريرس ! (١)

* * *

ايها السادة

كان الظلام مخيماً على الافكار . كان اسم فرجيليوس ضائعاً بين اسماء المشعوذين ، واسم فيدياس وبراكسيتيلس نسياً منسياً يوم صاح دانتي صيحةً ما لبث ان اتبعها بتراركا وبوكاتشيو بصيحات متعددات . روح النبوغ التي ظلت

(١) دون كريستوبال ڤالين ومسيو دي كاريرس هما سفير دولة سبانيا ومعتمدها السياسي وقنصلها في العاصمة يومئذ . وكانا حاضرين في الاحتفال

تتنقل صامتة في نفوس الافراد خلال القرون الوسطى . هبطت على شعراء ايطاليا مطلقة ألسنتهم فكان شعرهم عويلاً وتهليلاً ، يأساً ورجاء ، خاتمة لعهد مضى وفاتحة لعهد جديد

يومئذٍ ، بين جمهوريات مستعبدات وولايات ثائرات ، كانت روما مضعضعة الاركان لا تضع تاجها على رأس ملك من ملوك الغرب حتى تهدد أسوارها جيوش ملك آخر . لكن صوت الارتقاء لا يخفت مهما علت حوله أصوات معاكسات . ايطاليا التي كانت تمزقها الاحقاد والاطماع تمزيقاً ، ودماء صفوة بنيها تُراق على شفار السيوف بينما حصونها تندك تحت لعلعة النيران دكاً — ايطاليا الخالدة ، لم يبق لها لدى انين قيثارة الشاعر الا نفس طروبة طامحة الى بلوغ الاقدار الخطيرة

موجة حياة جديدة تولّدت في ارض المدنية اللاتينية وما كان حتى استفاضت على اوربا باسرها . لم تلمس في بادىء الامر الا الطبقة العليا ، ولكن ما لبث ان ادخلها اختراع الطباعة الى نفس العامة . فتغلغلت مع الكتاب بين طبقات الشعوب جميعاً .

ثورةمباركة استمر لظاها في جميع فروع الفكر الانساني.
فصارت الفنون تحتذي بدائع المدنيتين الاغريقية واللاتينية مضيفة الى جمال الاصل جمالاً كمن في الارواح ، تحت طيات الالم ، مدة الف وخمسمائة من الاعوام . أخذت شجرة الآداب تزهر اطيب الازهار . انقلب علم التنجيم الى علم الفلك فانهدّت قبة السماء الوهمية وسُمع حفيف الافلاك في ابراج اللانهاية . قامت العلوم على تعددها تتسع باكتشافاتها وتتقوى بتجاربها ، طاردة ما عثرت عليه من خرافات وأوهام وشعوذة. رُفع افلاطون ، المجهول قبل ذاك، الى عرشهِ السامي باسطاً على النفوس جمال فلسفته الشعرية . وذلك العهد المجيد ، عهد احياء الفنون والعلوم والآداب ، دعي عهد الانبعاث

أيها السادة

تاريخ القرون الوسطى الذى انتهى في اوربا بابتداء القرن الخامس عشر، يكاد يمتد عندنا الى اواخر القرن التاسع عشر. الا افراداً فكروا في وحدتهم منعزلين عن محيط بينهم وبينه أبعد الغربات وامرّها ، غربة الروح . فتركوا لنا في

كتاباتهم آثار نبوغهم . آثاراً اذا ما استجوبناها الآن عجبنا من تغلبهم على كل حائل في سبيل العلم وأخذنا الاشفاق عليهم لانهم كانوا يستحقون السعادة ولم يسعدوا

واذا استثنينا فئة سمت منها المطالب فشغفت بفكرة الارتقاء ، أليست هذه السنوات الاولى من القرن العشرين أشبه شيء بعهد القرون الوسطى نظراً الى حالة العامة ؟ . . الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع في ربوعه الخرافات والشقاء . ولا أظن ان ما ينقصنا هو اختراع الطباعة لندخل أشعة الفكر مع الكتاب الى تلك النفوس النائمة . ولكن ننتظر التعليم الاجباري ، ننتظر عمل المدارس الابتدائية منها والعليا ، ننتظر الوقت أبا العجائب ، ننتظر زيادة غيرة في الرؤوس المفكرة وزيادة تحفز في الهمم النهّاضة لنسير في طريق فوز ميمون الى عهد جديد يخرجنا من ليل القرون الوسطى الى نهار البعث العتيد

اشتهر أحد الرومان بكلمة رددها سنوات طويلة وهي: « فلنهدم قرطاجنة ! » . وفي نفس الفئة الراقية عندنا

أمنية ثابتة وهي : «فلنهدم الجهل ! » وانما تهدم المدائن بقنابل المدافع ؛ وأما الجهل فظلام ، والظلام لا يهدم الا بتغلب النور

النور ! النور ! نريد النور دواماً وفي كل مكان ! نريد ارتفاع النفوس الى أوجٍ تفهم عندهُ جمال الرجاء ، جمال الاشفاق ، جمال الواجب وجمال الخير ! نريد ان يفهم الرجل كرامة المرأة ، وان تفهم المرأة كرامة الانسانية ! نريد ان نعرف ذلّ العبودية كي ندرك عز الحرية ! نريد ان نكسر قيود الارغام كي نقيد ذواتنا اختياراً بواجبات سامية . نحن نعلم ان قيود الحرية أوفر من قيود الظلم عدداً ، وأدقّ نوعاً ، وأوجع وطأة ، ولكنّ في قيود الظلم اذلالاً يسحق الشخصية هابطاً بالانسان الى تحت درجة الانسان ، وفي قيود الحرية عزة تعلو بالمرء الى قمة العظمة فتصيره انساناً كاملاً ، يقوى على النظر ملياً في وجه الانسانية المجاهدة قائلاً : « انا ابنك وقد صيرني جهادي أهلاً لهذه النبوة المقدسة ! »

***

أيها الأستاذ الكريم

نحن جزء من الفئة التي ذكرنا . ولقد صدق فينا مثل أهل « اليوجا » الهندية القائل : « اذا استعد التلميذ جاء الاستاذ » . ساعة تقف نفوسنا حائرة عند أبواب المستقبل تتجاذبها عوامل الشك والرجاء فتدفعها حيناً وتحجمها حيناً — في هذه الساعة الخطيرة من حياتنا الادبية نراك عاملاً يداً بيد مع أساتذة جامعتنا الافاضل ، ومع نفوس غيورة أخرى تعمل لنهضتنا بالسكوت وبالقلم وباللسان ما استطاعت الى ذلك سبيلا

انت الغريب عنا جغرافياً نراك منا أكثر الناس اهتماماً باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن ان يكون المحسن غريباً ؟

نراك ساعياً الى انهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقاً يقودنا الآن فيها ، وجال في احنائها ومطاويها فوقف على ما علاها من مجيد الصعاب . وهناك في قاعة الدرس الصغيرة حيث يدخل شفق المساء على عجل ، وتسرج المصابيح سريعاً ، كم استحضرت اشارتك الواسعة نوابغ الاجيال بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد

تسنم الذرى العقلية . فسردتَ مذاهب المتقدمين باسطاً أقوالهم ، مفنداً آراءهم ، شارحاً ما لامس منها الاعجاز ، ملخصاً نقد الناقدين فآتياً بالنقد عليها جميعاً . ذلك بسلاسة وايجاز تكسوهما بلاغة عبقرية قد تكون انتهت الى الاسبان كإرثٍ شيشروني

وبينا بيانك يزيح حجباً ضُربن بين المعاني والافهام اذا بالنفوس منا تثب مطلاتٍ على آفاق جديدة . فيلحقنا عطش العلم ، وتأخذنا رغبة السؤال . وروحك الكبيرة العالية منهل نور وحكمة ، كلما استقينا منها معرفة وضياء زادت تدفقاً وتدفقت سخية ، وديعة ، صافية ، يتألق في تموجها حب العلم وحب الكمال

اليوم عيد شكرنا . ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان ساعات تفيض بها علينا سنيّ هباتك فاننا نذكر بتهيُّب ساعات أخرى كثيرات لا نسمعك فيها ولكن نعرفك في غيابك عاملاً لخيرنا . تلك ساعات العزلة اذ يختلي الاستاذ بنفسه مهملاً ضوضاء العالم . ساعات سكوت وتأمل تجعل الفيلسوف عميقاً كالبحر لا تقلقه العواصف ولا تكدره الدلاء

نراك منحنياً على كتب كثيرة تتصاعدُ من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية . تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة ، وتقارن بين أسلوب وأسلوب وتعبير وتعبير لتنقل الى لغة العرب حكمة شقيقتيها في المجد والقدم ومناظرتيها في الفصاحة والغنى : الاغريقية واللاتينية. لكنهما على شهرتهما لم تنتشرا انتشارها . ارتفعتا حيناً الى أوج الحياة والعظمة ولم يكن ان هبطت كل منهما مع مدنيتها . اما اختهما الثالثة ، لغة مكة والحجاز والعراق ، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدها كرُّ الدهور الاّ فتوةً وجمالاً لان لغة القرآن لغة خالدة

اننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة ، ونستزيدك منها لاننا في حاجة الى اثرها في نفسك وفي حاجة الى نتائجها الجليلة . ولئن استشعرنا بما تجده من العناء الكثير قرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد ، فاننا نعلم كذلك ان من كان مثلك ما ألهمتهُ الحوائل الا همة ونشاطاً ، وما زادته المسؤولية الا توهجاً واخلاصاً . واللغة التي احببتها وأنزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكت أعنة

الكلام فيها سوف تجازيك جميلاً ، سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات ، سوف تفتح كتابها الذهبي لك وتضم اسمك الى اسماء ابنائها الخالدين !

عاش الكونت دي جلارزا !

عاشت الجامعة المصرية !

عاشت نهضتها الحديثة !

وداع الاستاذين (١)

أيها السادة

في أعالي الفلك صورة سماوية تدعى « الشلياق » أجمل نجومها نجمٌ من القدر الاول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الابصار زرقتها اللامعة. رصده علماء الفلك فوجدوه محجة الكواكب. وجدوا ان جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه في الفضاء وهو لبعده الشاسع لا ينتهي اليه نظامنا الشمسي إلا بعد ملايين الدهور. وقالوا ان حياة ذلك النجم قد تكون انقضت، وان نوره قد يكون خبا منذ عصور ولكنَّ ما قام بيننا وبينه من مسافة هائلة يمكّننا من مشاهدة ذلك النور احقاباً طوالاً

---

(١) ألقيت في الحفلة التي أقامها في فندق شبرد في آخر يناير سنة ١٩١٨ طلبة كلية الاداب العربية في الجامعة المصرية لتكريم الاستاذين الجليلين الشيخ محمد الخضري بك مفتش أول اللغة العربية في وزارة المعارف الذي كان يدرّس في الجامعة تاريخ الامم الاسلامية، والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرّس تاريخ الاداب العربية

أيها السادة

النجم الذي لا تعرف منه الانظار والمراصد الا شعاعاً مجهول الامس والغد نجد في الانسان قوة تمزق عن كيفية تكوينه حجباً كثيرة . وما هي الا تلك القوة التي تقدحها الرغبة فتنطلق باحثة بين ما يُرى من العوالم وما لا يُرى مستقرئة همس الضياء ، قائسة تموج الاثير ، متلمسة ضمير الورى . هي مفرقة الشعوب وجامعتها التي كانت حيناً بعد حين ضلالاً وهدى ، وظلاماً ونوراً ، ووهماً وحقيقـة . هي مرشدة الامم كيف ترفع الامم رأسها لنيل حقوقها ، ومعلمة الافراد كيف ترقي الافراد مطالبها لنيل بعيد الغايات . هي مدونة الاسفار ، ومبتكرة الفنون ، ومستجوبة العلوم ، وغالبة الآفاق على شموسها ، والبحـار على خفاياها ، والنفوس على أسرارها . هي التي شادت دهراً بعد دهر نينوى وبابل وصور وأورشليم وأثينا وروما والاسكندرية . هي التي تعلو بالمدنيات وتهبط بالشعوب لانها أقوى من الشعوب والمدنيات ، وهي أبداً حاضرة متنقلة فعالة كالنور لا تُلمس ولا تنضب ، ولعل سرها سر النور وعنصرها عنصره . ألا وهي الفكر الانساني

لئن كان الفكر في الكهولة مهيباً برصانته وقدرته فهو في الشبيبة شيّق بتردده وحميته لانه قوة في طور التكوُّن . فما أحوجه في ذلك الطور الى يد حكيمة تثقفه وتقوده وتغذيه بتلك المبادىء التي توسع الحياة وتكسبها علواً كبيراً . لذلك كان التعليم صرح المدنية ، وكانت المدارس مصابيحها وكان الاستاذ فيها كاهن النور ورسول العرفان . وما التعليم سوى تصويب الفكر نحو غاية مُثلى يجمع في سيره اليها من الخبرة والمعرفة ما يؤهله لادراكها وتقديرها ؛ ولا الارتقاء سوى مجموع تلك الخبرات والمعارف الطيبة نافذة ناموساً في الجهاد اليومي والاعمال العادية

لا يحتاج الارتقاء الى جيوش وجحافل تدخله بين الاقوام . ولكن انشر كتاباً مستحباً الى أمة ترَ الدماء تُهرق لحفظ كرامته لانه أتاها بما لا تأتيه الحروب . بلاد الاغريق صغيرة بمساحتها ولكنها كبيرة باشراق نورها على بني الانسان . وروما مدينة ليس إلا ولكن هذه المدينة تملأ العالم . اذا ذكر الانجيل انحنت الرؤوس اجلالاً وتجمهرت النفوس حباً حول السيد المسيح استاذ الرحمة والغفران . وكفى التلفظ

باسم القرآن لتهتز القلوب طرباً عَلَى وفق الآيات والاسجاع مرتلةً مع السور اسم النبي العربي.

أيها الاستاذان الجليلان

سنوات مررن وأنتما تثقفان من شبيبة وطنكما الفكر والخلق ، وتفيضان عليها ماحواهُ صدركما الرحب من بلاغة الكتاب العزيز وعلوم لغته الشريفة . بحث الاستاذ الشيخ المهدي في آداب العرب ففتح امامنا تلك الكنوز الثمينة وأعلمنا ان العربي ذو استعداد أدبي وعلمي كبير . فوجدنا سائق الاظعان نظاماً إن لم نجده شاعراً ، ووجدنا الراعي عالماً بالهيئة السماوية ودورة الكواكب ، وخلنا المستعطي العافي فيلسوفاً حكيماً ، وسمعنا قائد الجيش خطيباً . واذ رأينا فتاة العرب تبكي اذا بدموعها درر ترصع الأوزان ، فهبطنا الى نفسنا فاذا هي قيثارة تئن شجناً كلما نقرت على أوتارها يدُ الفنّ ويدُ الألم

واستخرج الاستاذ الشيخ الخضري بك تاريخ الأمم الاسلامية من مخابئه فسيَّر أمامنا مواكب دول الفتوح

منطلقة لاجتياح ما استطاعت من القارات الثلاث تحمل اليها مدنيتها مشيدة فيها معاهد التأديب ، مقيمة بنايات العلم، رافعة بيوت الصناعة ، ضاربة للعدل رواقه وممددة للأمن أطنابه . يوم كانت همتها القعساء تستثير شجاعة الشجعان مندفعة نحو قصيّ الربوع كالسيل الجارف ، إن اعترضها في اندفاعها حصون نشرت عليها أعلامها ، أعلام الفخر . أو قام في سبيلها عواصم طوّقتها حصاراً مرددةً أهازيج النصر . و نفوسنا لدى مشاهد العظمة العربية انما تنقلب قواها تحفزاً وحماساً شديداً.

أيها الاستاذان الكريمان

لكما عندنا كلمتان : كلمة شكر وكلمة أسف . أما كلمة الشكر فنحتفظ بها في سويداوات القلوب لا تمحى حروفها ولا يحفل معناها ، بل تظل نامية لنودعها حية صدر أجيال مقبلة . وأما كلمة الاسف فلا نفوه بها . لانه وان خسرتكما جامعتنا المصرية فانتما على الدوام ربحُ شبيبة تستظلُّ بحماكما مستوثقة بعهود لا تخان . وحياتكما الثمينة التي وقفتماها

على خدمة العلم مستودع فضل عميم سوف نغترف منه طويلاً ان شاء الله

ولكننا نقول كلمة ثالثة هي هذه: القيا نظرةً على الماضي تريا سهلاً يموج فيه نضار حصاد أوجدته أياديكما. وانظرا الى المستقبل تبصرا مروجاً فسيحة تنتظر منكما بذور العرفان لتنمو لمصر حصاداً عسجدياً!

عاش الاستاذان الجليلان!

الاخاء[1]

أيها السادة والسيدات

يعز عليّ أن يصمت الصغار لأتكلم أنا . لكني اسألكم ان لا تصغوا الى صوتي فهو ضعيف لا تهتز له موجات الهواء الا قليلا . بل اصغوا الى ذلك الصوت الهامس لكل نفسٍ في وحدتها حتى اذا اجتمع الافراد جمهوراً ارتفع ذلك الصوت واختلطت معانيه بمعاني أصوات تحيط به ، فأصبحت الاصوات الكثيرة صوتاً واحداً شاملاً يهز القوم هزّاً مهما اختلفوا جنساً وعقيدة ومصلحة وميولا . يسمي علماء النفس هذا التأثير الواحد الذي يخضع له الجمهور « نفس الجماعات » اما سادتنا الاطباء الذين وجدوا العدوى في كل مكان فقد دعوهُ « عدوى عصبية » . الكلمة مخيفة قليلا غير انها عدوى مستحبة تتحد القلوب تحت تأثيرها ، فيطرب الجميع لطرب واحد ، ويتوجعون لحزن واحد فيسعون لمصلحة

---

(١) ألقيت في حفلة جمعية القديس جاورجيوس السورية الارثوذكسية في ٣ مارس سنة ١٩١٨

شريفة واحدة . في هذه العدوى شاهد على ان بين الغريب والغريب صلة قرابة شديدة ، وما تلك الصلة الا مظهرٌ من مظاهر الاخاء الكمين

ان كلمة الاخاء التي ينادي بها دعاة الانسانية في عصرنا ليست ابنة اليوم فحسبُ ، بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت الى الوجود منذ شعر الانسان بان بينه وبين الآخرين اشتراكا في فكرة اوعاطفة أو منفعة ، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولا . يجب أن يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان. يجب ان يحتاج الى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره اليه . يجب ان يرى حقوقه مهضومة يُزدرى بها ليفهم ان حقوق الغير مقدسة يجب احترامها . يجب ان يرى نفسه وحيداً ، ملتاعاً ، دامي الجراح ليعرف نفسه أولاً ثم يعرف غيره فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الاخاء بارتقاء الانسان

في جمعيات سرية وعلنية ، في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استُعملت كلمة الاخاء بين الانسان والانسان قروناً طوالاً ، حتى جاءت الثورة الفرنساوية تهدم أسوار

العبودية بهدم جدران الباستيل، وتعلن حقوق الانسان مستخلصة من بين الاخربة والدماء والجماجم كلمات ثلاثاً هنَّ شعار العالم الراقي: حريةٌ مساواة إخاء

حرية، مساواة: كلمتان جميلتان يخفقُ لهما قلبُ كل محب للانسانية لكن— لا بدَّ لكل شيءٍ من «لكن» — هل كان تحقيقهما في استطاعة البشر؟ ما أضيق معنى الحرية اذا ذكرنا ان مجموعة الكائنات تكوّن وحدة العالم، وان على كلٍ منها ان يصل الى درجة معينة من النمو مشتركا مع بقية الكائنات في اكمال النظام الشامل. وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الانسان وحدهُ متصرفاً في أفعالهِ بشرط ان يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه. هو حرٌّ بشرط ان تنتهي حريتهُ حيث تبتدئ حرية جاره، وبشرط ان يعلم انه حيثما وجّه انظاره وافكاره وجد نظاماً معيناً؛ وان حريتهُ، كلَّ حريتهِ، قائمة في اختيار السير مع ذلك النظام او ضده واستعماله للخير او الشر، للربح او الخسران. فما اكثرها شروطاً تقيد هذه الحرية التي تندكُّ لاجلها العروش وتتطاحن الامم للحصول عليها!

اما المساواة فحلم جميل ليس غير . لان الطبيعة في نشوئها التدريجي لا تعرف الا الاختلاف والتفاوت . أين المساواة بين النشيط من البشر والكسول ، بين صحيح البنية والعليل وراثة، بين الذكي وغير الذكي، بين الصالح والشرير ؟ كلا ، ليست المساواة بالامر الميسور بل هي معاكسة لنظام حيوي اذا غولب كان غالباً قاهراً

كلمة واحدة تجمع بين حروفها الحرية والمساواة وجميع المعاني السامية والعواطف الشريفة . كلمة واحدة تدل على ان البشر اذا اختلفوا في بشريتهم اختلافاً مبيناً فهم واحد في الجوهر ، واحد في البداية والنهاية . كلمة واحدة هي بلسم القروح الاجتماعية ودواء العلل الانسانية وتلك الكلمة هي الاخاء . لو ادرك البشر اخوّتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشبيبة وما زالت الدماء جارية في القارات الاربع وما يظللها من سماء ويتخللها من ماء . لو ادرك البشر اخوّتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لو ادرك البشر اخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الامم القوية الى استعباد الامم الضعيفة

لو أدرك البشر اخوّتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌّ في حق أخيه وهي من أركان أحاديث صالوناتنا الجميلة . ولكن لننزلنّ قليلاً الى ما هو تحت السياسة والتاريخ والصالونات . لننزلنّ الى مهبط الشعب حيث الشقاء مخيم واليأس مستديم . ما أوجع منظر اليـد الممتدة للاستعطاء ! انه يدل على احتياج الجسم الى القوت ، ويدل خصوصاً على جوع النفس وفقدانها لتلك الافكار التي تعلي المرء في عين نفسه ولتلك العواطف التي تجعله شاعراً بانه جزء مهمٌّ من هذا العالم البـديع . عواطفُ نبيلة وافكارٌ عظيمةٌ لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع ، وتتلاشى مع استمرار الفاقة والذل والانكسار . الى أين تذهبون أيها السائرون في مركباتكم الفاخرة ؟ الى أين تسيرون ايهـا الضاحكون ؟ تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون ، وتذكرون بسمات الربيع واخلاص الاصـدقاء . اما تلك النفوس الشقية فلا تدري من ذلك شيئاً . ما الانسان في شرعها الاّ عدوٌّ لدود ، وما الحياة الا سرير الغموم ومستودع البلايا . أنتم السعداء تستسلمون لعذوبة الحب وطهر الولاء ،

وهم البؤساء يطوون على الحقد احناء صدورهم ويكظمون حقداً تذكو جمرتهُ مع الايام . وفي هذه الطبقة الجائعة الذليلة الدائمة الانفعال تكوّنت بذور ثوراتٍ هائلة نمت فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالاً

غير ان فئةً من هذه الطبقة لا تعرف تمرّداً ولا تكظم حقداً . وهي أوجع فئة لانها تتألم صامتة ولا ترجو راحة وسلاماً الاّ من الموت

واذا ظننتم اني اتكلم كشاعرٍ يهيم في أودية الخيال فها كم حقائقَ ملموسة : منذ أشهر قليلة انتحر شابٌ في الثامنة والعشرين من سنيهِ . كان له امٌ جائعة وكانت أبواب الرزق مقفلةً في وجهه فألقى بنفسه في النيل تخلصاً من الحياة . بعد ذلك بأسابيع قليلة مات شيخ في الثمانين من عمره كان يستعطي على مقربة من جسر بولاق وقد اسفر التحقيق بعد موته عن انه لم يتناول قوتاً منذ خمسة أيام . في أواخر الصيف الماضي وجد بوليس الاسكندرية اربعة أيتام بلا مأوى . سار بهم الى المعاهد الخيرية لكنّ معاهد البر حدّدت عدد مَن تقبلهم في هذه الاعوام بحكم الظروف

الاقتصادية · فعاد البوليس بالاطفال الى القسم حيث جلسوا يبكون ، ولمّا سئلوا عمّا يحزنهم اجابوا انهم لم يأ كلوا منذ ماتت امهم أي منذ ثلاثة أيام

اني أتذرّع بصوت هؤلاء البائسين ودموعهم لاصرخ ان مثل هذه الفواجع يجب ان لا يكون . ولاقول ان الاجتماع باسره مسؤول امام ضميره عن اهماله وقسوته . وانه ما دام في وسطه شهيد واحد من هؤلاء الشهداء فهو قاتل جانٍ . فالاجتماع جسم واحد سواء شاء الافراد ام لم يشاؤوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم اسرة كبيرة واحدة . تلك سلسلة قيدتنا بها يد الله فمن حاول كسر حلقةٍ من تلك السلسلة جرح نفسهُ وكان لغيره مؤذياً . ليس من عار ان يكون المرء عليلا في اسرته ، أو ضعيفاً بين اخوانه ، بل هناك امتياز يجعلُ الضعيف ، اوالحقير ، او الجائع محبوباً اكثر من غيره لانه يحرك العطفَ والحنان في القلوب المتحجرة وينبه السعيد من اخوانه الى واجبه نحو المحروم من نعم الحياة

من المفكرين من يقول بامكان حذف الفقر وملاشاة

الألم . لكن ذلك مستحيل وسيظل الفقر موجـوداً ما دام أحد الناس أوسع ثروة من غيره فكان الآخرون فقراء بالنسبة اليه . ثم ان الفقر النسبيّ ممرٌّ لازم الى الغنى ، وهو منبـه للذكاء ، مهيج للرغائب ، تحتدم فيه نار قوى عديدة طالما اطفأت جذوتها عيشة الرغد والهناء . أما الألم فناموس قهّار ، وهو المهذّب الاكبر الذي يعلّمنا دروس الحياة كلمة فكلمة . هو النار المطهرة النفس من كل غشٍ وفساد حتى تتركها جوهرة لامعة . هو دافع بالمرءِ الى داخل نفسه حيث يجد قوّته واقتداره ويتعلم الرحمة والاشفاق . لان الذي لم يرَ دموعه هاطلة على أرض صماء ، ولم يشعر بان دماء قلبه تسيل نقطة بعد أخرى ، ولم يبصر حجاب اليأس مسدولاً بينه وبين البشر ، ذاك الذي لم يتوجع باحتياجه الى التعزية كيف يمكنه ان يشفق ويرحم ؟ كيف يدخل الى قلوب الغير ويلمس موضع اللوعة منها ؟ نعم الفقر والالم ضروريان للحياة . ولكني أقول بامكان استئصال الفاقة . فالفاقة برص اجتماعي ، وكما تلاشى البرص من جسم الانسان يجب ان تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع . ولا يتم ذلك الاّ اذا ترابطت منا الاقلية القادرة

العاملة . لا يتم ذلك حتى يذكر الاقوياء أنهم اخوة للضعفاء فينحنون على نفوس محزونة تضج بالاسى ضجيجاً ويرفعونها الى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير ناموس تنازع البقاء السائد في عالم الحيوان ناموس التعاون على حب الحياة السائد في عالم الانسان

ما هو النهر أيها السادة والسيدات ؟ وهل يكون نهراً اذا هو انبثق من مصدره وانصب في البحر دفعة واحدة ؟ انما يتفجر ينبوع النهر في اعالي الجبال فيهرول مقهقهاً على الصخور حتى اذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء ملأ الوادي ألحاناً وأنغاماً . يجري في الصحارى والقفار فتنقلب القفار والصحارى مروجاً خصيبة وجنات زاهرة . يسير في البادية والحضر على السواء فيروى سكان المدينة وأهل القرية بلا تفريق بين الشريف والحقير . يرضع الاشجار بتغلغله في صدر الارض الملتهب ويغذي الاثمار والنبات ناظماً لآلىء في ثغور الورود . وكلما وزع من مياهه زادت مياهه اتساعاً وتدفقاً فيتابع السير بعقيقه الفخم واسع العظمة رحب الجلال . حتى اذا ما جلب النفع على الكائنات ، وملأ الديار خيراً وثروة

وجمالاً ، رأى البحر منبسطاً لاحتضانه فشهق الشهيق الاخير وانصبّ في صدر البحر مهللاً مكبراً . كذلك عاطفة الاخوّة لا تكون اخوّة حقيقية الاّ اذا خرجت من حيز الشعور الى حيز العمل . تتفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع وتجري نهراً كريماً بين طبقات المجتمع فتلقي بين المتناظرين سلاماً ، وبين المتدينين تساهلاً ، وتنقش محامد الناس على النحاس ؛ أما العيوب فتخطّها على صفحة الماء . تساعد المحتاج ما استطاعت بلا تفريق بين المحمدي والعيسوي والموسوي والدُهري . ترفع المسكين من بؤس الفاقة ، وتنشر على الجاهل أشعة العلم والعرفان ، وتفتح أبواب الرجاء لعيونٍ أظلمتها أحزان الليالي . فكم من درةٍ في أعماق البحر لم تسرّ بها النواظر لان يد الغوّاص لم تصل اليها ! وكم من زهرة نوّرت في القفر فتبدد عطرها جزافاً في الهواء ! انما الاخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ويرفع لها جدراناً تقيها ريح السموم الفتاك . هو العين المحبة التي ينفذ نظرها الى أعماق النفس فترى اوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير

الجميع بثقة وسرور لانه القلب الرحيم الخافق مع قلب الانسانية الواجف

الاخاء ! لوكان لي ألف لسان لما عييتُ من ترديد هذه الكلمة التي تغنت بها الضمائر الحرة وانفتحت لها قلوب المخلصين . هي أبدع كلمة وجدت في معاجم اللغات واعذب لفظة تحركت بها شفاه البشر . هو اللين والرفق والسماح كما انه الحلم والحكمة والسلام . لوكان لي ألف لسان لظللت انادي بها « الاخاء ! الاخاء ! » حتى تجبر القلوب الكسيرة ، حتى تجف الدموع في العيون الباكية ، حتى يصير الذليل عزيزاً ، حتى يختلط رنين الاجراس بنغمات المؤذنين فتصعد نحو الآفاق أصوات الحب الاخويّ الدائم

أُحييّكَ يا معهداً أحسنت عائدة على البائسين فضممتهم اليك ليشعر اليتيم بان له والدين اذا قضى الوالدان . وعنيت بصغارٍ وصغيرات هانوا على مصائب الدهر ففتحت امامهم سبل الرجاء وعلمتهم نشيد المصر وهو نشيد الحياة القائل :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً
يغنيك محمودهُ عن النسبِ

ليس الفتى من يقول كان أبي

ان الفتى من يقول ها اناذا

أحييكم ايها المحسنون أغنياء كنتم تعطون البائس من ثروتكم والضعيف من قوتكم ، أم علماء تفتحون عيني الجاهل على آفاق الضياء وتذكّرون الانسان ان بينا جسده مقيد بقيود المادة فان روحه تقطن دائرة النور الاطهر. واذا صدق اوغست كونت بقوله ان الاخاء يجب ان يكون ديناً اجتماعياً عاماً وان الانسانية يجب ان تكرس أعياداً لاعاظم رجالها وكبار محسنيها فانتم اولئك الاعاظم والمحسنون ، وبدلاً من أن تتلاشى تحيتي على أجنحة الهواء وددت ان اخطها خالدة باحرف النور على جبهة السماء !

أيها السادة والسيدات

لقد شاد قدماء المصريين اهراماً تناطح الجوزاء عظمتها وتحير العقول أشكالها الهندسية ورموزها السرية . ونحن أبناء هذا العصر نريد رفع هرم جديد يكون أعمّ منفعة وأوسع فائدة . ذاك منارة الصحراء ومدفن الفراعنة وهذا منارة البؤساء ومدفن الذل والشقاء . ذاك يتركب من أحجار

ضخمة وصخور منحوتة ، وهذا يتألف من مدارس للبائس واليتيم ، وملاجىء للعجزة ، وجمعيات برّ تساعد الارامل والمحتاجين وتمهّد سبيل العمل للعاملين . ذاك يلجم فيه بين الحجر والحجر طين الارض ، وهذا يربط معاهده تبادل الرغائب الشريفة ويسير أعماله اهتمام الاخوّة العالية . ذاك رُفع بعرق البؤساء ودم العبيد وهذا يرفع بعطايا المحسنين وكرم ذوي الاريحية . ذاك لم تفهم أسراره الاّ الاقلية النادرة ، وهذا تتهذب في مدارسه الاكثرية البائسة فتسمو في سلّم الانسانية ويرتقي بارتقائها الاجتماع باسره

فيا رُسُل جمعيات البرّ في هذا الاجتماع الجليل ! ساعة تعودون الى اخوانكم واخواننا من مسلمين واسرائيليين ومسيحيين ، قولوا لهم انكم رأيتم هيكلا جديداً من هياكل الاحسان ومعهداً ينضم الى معاهدكم السامية . قولوا ان الرجال يعملون فيه بسخاء وغيرة وهمة تتزايد مع الايام ، وان السيدات يسابقنهم بما عندهنّ من عطف وذكاء وحنان لان أشرف موقف يظهر فيه حب المرأة هو موقف البر

والاحسان . واذا امتدت لكم من هذا المعهد الحديث يد فلا تسألوا هل هي مصرية أو سورية أو أجنبية ، بل صافحوها تعلموا انها يدكم بعينها لانها يد الاخاء الانساني العظيم!

فضل الآداب [1]

يرجع أثر الصناعة والتجارة في تكوين العلائق الاجتماعية الى عهد أبعد كثيراً من يوم وطأ الفينيقيون الشاطىء الاغريقي للمرة الاولى ، وربما انتهى بنا الى فجر تاريخ العمران . ولولا تلك العلائق ما اختلطت الاقوام ، ولا تمازجت الاجناس ، ولا تكوّنت المدنية ولظلت الجماعات في وحدتها الانثرافية وانقطاعها الحيويّ بعيدة بعضها عن بعض . ولو كان ذلك لفنيت العشائر وانقرض النوعُ في زمنٍ قصير

وجدت الصناعة والتجارة فزاد تبادلها في ثروة الجمهور ، وجلب الرخاء فتعدّدت مثُلُ الانتاج وتوفّرت للافراد سهولة المعيشة . ولئن أثّر ذلك التبادل في الظواهر الحسية ، وأتى بتغيُّر محتم في عادات البلاد ومشارب أهلها مرهفاً عندهم

(١) ترجمة الخطبة الانجليزية التي تليت في حفلة أقامها في فندق شبرد طلبة قسم الاداب الانكليزية في الجامعة المصرية لتكريم استاذهم في أواخر ابريل سنة ١٩١٨

تطلّب الكماليات ، فانه لم يفلح يوماً في التقريب بين الشعوب وحذف ما بينها من نفور وخصام ، وتوحيد الرأي والكلمة منها . فهو إن لم ينبه فوراً الحسد والطمع وحبّ المنافسة ، وإن لم يوقدْ حروباً ويُقمْ معاركَ هي من الهول والفظاعة ما شهده العالم في أيامنا ، فهو يترك الناس الى وقت في خلوٍ غافلين عن المزاحمة والمقاومة ، راكنين الى التمتع والتلذّذ ، لانه قاصر على عالم المحسوس السطحيّ — ذلك العالم أسير التغير والتبدّل وعبد الاختلاف والتعدّد على الدوام .

انما الشعوب كالافراد لايتفاهمون الا بالتآلف الفكري ولا يتوحدون بغير التمازج الروحي . متاعُ المصانع ونتاج المعامل يحفظ ابداً طابع الشعب الذي ابتكرهُ أو عالجه . ولكن أهل الفكر والعبقرية لايُسبكون في قالب ولا يحملون طابعاً ، بل يخصون الانسانية باسرها ويخدمون الجميع بلا حصر ولا استثناء . يتكلمون ويملون ويكتبون ، وسواء هم افصحوا عن نظراتهم ومشاعرهم باليونانية واللاتينية او العربية والهندية فانما هم يترجمون عن حاجات بشرية ورغبات انسانية تجمهرت في نفوسهم الكبيرة الحساسة

ما غرض الادب والبيان سوى التعبير عن الفكر والعاطفة كلاماً وكتابةً ونقل صور ذهنية خفية الى عالم الاطلاع والاستمراض. يفضي كل شعب بسرائر ضميره على أسلوب خاص، ويطلق شعراً ونثراً ما كمن فيهِ من كآبة وحنين الى مثلٍ أعلى هو قدوته وقبلته. حتى اذا ما أودع الكتب ما يسميه آداباً وفلسفة وعلماً، وبعث بتلك الكتب الى البلاد القصية، فكأنما هو ينفذ رسالة حُبٍّ وتنبيه وتفاهم الى اخوته واخواته بالحياة والانسانية والقدَر؛ بل كأنما هو يريهم من نفوسهم وجهاً جديداً وشكلاً طريفاً. ليست الكتب لمؤلفيها ولا الآداب لموجديها بل هي إرث من تطلبها وملك من انتفع بها. وليس الفرد في ذاته أهلاً للاعجاب انما هي الانسانية عجيبة بما تلازب فيها من مدهش القوى والممكنات؛ الانسانية وحدها عظيمةٌ بما تأتيه من الاعمال الباهرات

اما النوابغ فافراد اختارتهم الحياة لادراك وسط يعيشون فيه والوصول الى أقصى رغائبه وألبس نزعاتهِ، فهم بذلك أقرب من سواهم الى اغوار الروح الانسانية، وأسرع

فهماً لحركاتها وخصائصها، وأبرع حذقاً في التعبير عنها. وتقوم كل أهميتهم باتصالهم المتين بالفكر الشامل الدائم الابداع، وكأن قلب الانسانية العظيم ينبض الوقت بعد الوقت في قلوبهم الصغيرة فيظل صدى نبضاته متردداً في صرير اقلامهم. لذلك كانوا مازجين دماءهم بدماء الانام، خالطين انفاسهم بانفاس بني الانسان اجمعين، شاعرين مع مراتب الخليقة باسرها بالحاجة والتعاون، والتوحد والتغاير، والحزن والبكاء، والسمو والحقارة. بل شاعرين باقتدار الكون وعجزه المتتابع في كيانهم. ولذلك كانوا أنفع من الجنود وأحسن عائدة

السيف قاهر معاقب اما الفكر فمثقف ملطف. السيف يغزو الممالك داحراً كتائب وجحافل ويشهر الحروب واضعاً بين الانسان والانسان جدران حقدٍ كثيفة. أما الفكر فلسيفه خفة الهواء، ولطف النسيم، وهول الصواعق. وبذلك السيف الذي يدعى القلم يُشهر الفكر حربه المجيدة حرب الفرد على الجمهور، حرب الروح على المادة، حرب الحكمة على الزهو، حرب الحصافة على الغرور، حرب العدل على

الطغيان ، حرب الكرامة على التطفل ، حرب الحقّ والواجب على التهجم والخمول ، بل حرب العمل والصلاح السائرة بالانسان نحو صروح الارتقاء والضياء

بالقلم الذي هو اداة البيان ، وبالقلم وحده ، يبرز كل شعب آدابه أي عصير روحه ، وهو عصير جزء من روح الانسانية . ينتبه لنفسه باتصاله بقلب الانسانية وفكرها فيلفتنا الى انفسنا وما كمن فيها من قوة اذ يصلنا بفكر الانسانية وقلبها . لأن كلّ نفس فردية قيثارةٌ ذات أوتار تجاوب كلّ قرار وتهتز لتعزف متعاونة مع جوق النفوس المهيب . فان كان ثمة مشاهد بهاء خفيت علينا ، أو أناشيد طرب لم تطرق سمعنا، أو لجج احساس لم نذهب في غورها، ما فتحنا ادراكنا للتأثيرات الآتية من الغرباء أفراداً كانوا أم جماعات الا اتسع الافق امامنا ، فاقبلنا على اكتناه معاني الحياة ودنونا من خفايا السناء ومكنونات القوى . وليس أقدر في التقريب بين الشعوب من الالمام بألسنتها ، فنصير كأننا هي أيضاً بعد ان كنا نحن فحسبُ . وبهذا الازدواج أو التضاعف نزدوج أو تتضاعف منا الخبرة والفطانة

والادراك ؛ والا فقل اننا نتسع فهماً ، ونكبر روحاً ، ونسمو مطالب لاننا أصبحنا جماعة في واحد . ألم يقل الشاعر العربي ان كل لسان بالحقيقة انسان ؟

نعم ؛ اذا عرف امرؤ لغة شعب تلاشى في نظره ما يحيط بذلك الشعب من غرابة وإبهام ، وكلما تقدم في تفهم الآخرين انجلى له تشابه النفوس للنفوس وعثر على ما بين الناس من نسب الحاجات والنزعات والآلام والمسرّات . اذ ذاك يعلم ان الانسانية واحدة في كل زمان ومكان . ورغم الفروق والحواجز والعادات والاصطلاحات ، ورغم اختلاف اللغة وتقاتل المطامع لا تلبث ان تظهر له بالتدريج أخوّة الانسان للانسان

* * *

لئن كان لكل لغة آداب فيزة اللغة الانجليزية ان لها آداباً أربعاً : الانجليزية والاسكتلندية والايرلندية والامريكية . ولئن كتبت جميعاً بالانجليزية فان لكلّ روحها الخاص ومزاياها الخاصة

وعندما نحن ابناء الشرق نستعمل هذه اللغة ذات

الفواصل الوعرة والمواقف الحادة فكأننا نتبيَّن في لمحة جهود الارادة القومية التي حلّت مع الزمن في مقاطعها ورناتها . ما أتمّ تلك الالفاظ قوة وأنفذها عزماً ! ان كل ما فيها من صوت ونبرة وتركيب وعرقلة وقدرة مكتسبة من استعمالها المتواصل يسطو علينا فيجعلنا الى حين مماثلين لجامعي شتاتها ، ويتناول روحنا الشرقية فيوحّدها وقتاً مع الروح الغربية المضمرة فيه

لقد كان يسرّنا ويفيدنا جميعاً ان نستمع لدروس الآداب الانجليزية في هدوء قاعة الدرس بالجامعة المصرية بعيداً عن دويّ المدافع وجلبة أخبار الحرب ، بعيداً عن حركات الاجتماع وضوضاء العالم ، بينا تقبل ليالي الشتاء باسطة علينا رواق شفقها المثقل بالاحلام والتأملات

لذلك لا يمنعنا الآن تمتعنا بجمال الربيع من انتظار الخريف القادم حيث تعود ، يا سيدي ، الى القاء محاضراتك القيّمة . سوف تكثر الحركة في الشارع كالمعتاد فيواصل المنجد جارنا العزيز دقّ المسامير العديدة في المقاعد الخشبية ،

وتُتابع السيارات والمركبات مرورها بلا انقطاع ، وتظل أصوات المدينة على ما هي هامسة متعالية هاتفة . ولكن سوف لا نعير ذلك التفاتاً ولا نهبه اهتماماً . بل نتفرّغ لسبر غور الروح الانجليزي الجامع بين الاشكال والوضوح ، والامتياز والبساطة ، والحرية والخضوع ، والانفة واللين — ذلك الروح الجذّاب بماديته وروحانيته وقربه ومناعته . سوف ننسى العالم الخارجيّ سعداء بان نعيش ساعة في عالم المعنى العالي ، مستنشقين نسيماً عذباً تثيره ذكرى نوابغ الماضي ، غائصين فكراً وروحاً وانتباهاً في اوقيانوس وحيٍ وجمالٍ ورفعة تتكوّنُ امواجهُ الفخمة مما تعرضه لدينا من أسماء اولئك الاماجد وافكارهم العظيمة ومصنفاتهم الخالدة

الدموع [١]

مصر العزيزة التي سبقت الاقطار العربيـة نحو قمة الارتقاء ، مصركم أيها المصريون ، ومصرنا نحن السوريين ، قد بلغت في ارتقائها مرتبـة رفيعة . وعلى ذلك شاهدان : الشاهد الاول هو انه في وسط هتاف الوطنية الشامل ارتفع هتاف الانسانية السامي . ارتفع صوت لا ليتكلم عن ماضي الامـة ومستقبلها ، ولا ليعظّم نوابغها وابطالها ، بل ليذكّرها باحقر أبنائها العراة الجائعين . صوت الرحمـة والاشفاق انضم الى صوت الحماسة والفخر فرجّعت صداه جميع القلوب وكان الشاهد الاول على وقوف مصر في مرتبة رفيعة . والشاهد الثاني : انا الشاهد الثاني — ليس انا بصفتي الشخصية ، ولا أنا وفاء سوريا المصرية فحسبُ ، بل انا الفتاة الشرقية يشركها الرجل في جليـل أعماله ويفسح لها مجال

(١) ألقيت في الاجتماع الذي عقد في الأوبرا السلطانية مسـاء ١٦ مايو سنة ١٩١٩ لانشاء « ملجأ الحرية » ، إجابة لطلب الدكتور عبد العزيز نظمي بك الذي دعا الى انشاء ذلك الملجأ ابان الحركة الوطنية الـكبرى

القول والعمل في الاصلاحات القومية . أنا تلك التي خفَت صوتُها دهوراً لان الرجل كان كما كان . أما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى فقد أوقفني في مكاني جاعلاً صوتي يتصاعد حرًّا ويسطو قاهراً فعَّالاً ، لا لأنهُ صوت فتاة بل لانهُ صوت الفرد الانساني المكمّل ، وصوت عضو في المجتمع المصري الراقي .

كنت لابسةً أثواب الحداد فاستبدلتُها لاقف امامكم . انما يُلبس السواد حزناً على الموتى . ولكن الامة التي تنبض فيها حياة جديدة تدفعها الى تقدير كرامة المرأة ؛ الامّة التي ضمّت اليها جميع عناصر النزلاء حتى جعلتهم شاعرين بانهم اجزاء حية منها ؛ الامة التي تذكر البؤساء في غليان حماستها الوطنية ، وتنحني على التعساء في احرج مواقفها التاريخية ؛ تلك الامة لا يجوز لفتياتها لبس السواد بل خليق بهنَّ ان يتشحن بالبياض النقي ، لون الصفاء والسعادة والهناء

في هذا الاجتماع الفخم تسمعون من شعرائنا السحر الحلال ومن خطبائنا بليغ الاقوال ، أما انا فاسمحوا أن احدثكم

في موضوع هو كل ضعف المرأة وكل قوَّتها معاً ، ألا وهو الدموع

ايها السادة والسيدات

ان للشعراء الذين في كل واد يهيمون لمحات وحيٍ فيها يصدقون . هم الذين شبهوا الدموع باللآلئ فما اتمَّ هذا التشبيه مجازاً وحقيقة ! كيف تتكون اللؤلؤة ؟ هناك في البحار الحارة يعيش حيوان الصدف اللؤلؤي حتى اذا اصطدم بصخر أو بمادة أخرى صلبة تشقق منهُ الجسم واستقرَت في تلك الجراح ذريرات الرمل فتكوَّنت عليها اثمن درر العالم . فما اللؤلؤة اذاً الاَّ ابنة الالم الطويل وثمرة لوعة مستعصية وداء دفين . وكيف تتكون الدمعة ؟ ما اشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة ! انه لا بد لكل أحد من الحصول على مجموع معلومات يتكفل بايصالها اليه اثنان : الاحوال والبشر . واهم تلك المعلومات وأبقاها في النفس لا يأتي الا عن طريق العذاب والالم ، كما ان اعمق الكلوم قد تأتينا من أحب الايدي الينا . وحينما ينجرح القلب تحت ضغط التأثير الشديد اذ ذاك تتكون لآلئ الدموع في جراحه ، اذ ذاك

تنهمر العبرات واحدة بعد أخرى ، كانما هي دقات ناقوس صامت حركته يد الحزن فسالت دقاته درراً ذائبات

ان للدموع اثراً ليس يمحى . قد ينسى المرء ساعات الانس ولكنه لا ينسى ساعات البكاء لانها تلقنه أعظم دروس الحياة وهي أهم مراحل ارتقائه . وقد يكون جاهلاً كل لغة وكل معنى غير انه يفهم لغة البكاء ومعناها لان جمرة الحسرة واحدة في جميع الصدور ، وما كان البكاء الا أرثاً مشتركاً بين بني الانسان . على ان ما نسميه دموعاً ليس الا جزءاً من السائل الدمعي العظيم الاهمية لحفظ الصحة . ان هذا السائل خفيٌّ تنشره حركة الاجفان على مرآة العين فيصقل منها الاعصاب ويحفظ المآقي من النشف والجفاف . فاذا هطلت منه كمية كبيرة مرضت العين وضعف البصر وصار معرضاً للذبول والانطفاء . ومن جهة أخرى اذا انقطع السائل الدمعي حيناً او افرز كمية قليلة ، فقدت العين تألقها البهي ولحقها التهاب وتقرُّح . كذلك تهبط كمية دمعية معينة الى مركز حاسة الشم حيث تمتزج بالهواء الداخل الى الرئتين فتنيله من الرطوبة المقدار اللازم

اني استميح عفو السادة الاطباء لتهجمي على موضوع ليس لي . ولكنني ارى ان الدموع الكثيرة في عيون البؤساء عنوان الفناء . اما الدموع القليلة في عيون السعداء فضرورية لجسم الاجتماع ضرورتها لجسم الانسان . أهل الفاقة من الامة عينها الرمداء واهل اليسر عينها النجلاء . فان لم يبكِ السعداء يوماً أظلمت منهم البصيرة وتحجّر الفؤاد وجهلوا معاني الكآبة وحقيقة الاخاء . وان لم ترطّب دموع العطف هواء يستنشقه المجتمع فسد الهواء وامتلأ بفحيح الافاعي وبذور الشقاء . وان لم تداوِ الامة منها العين الرمداء انحلّ التضامن واختلّ التوازن وامتدت القروح قليلاً قليلا الى العين النجلاء

قال الدكتور ويلسن في خطبة ألقاها في ايطاليا : « ان قلب العالم يخفق اليوم ليس في الخنادق وميادين القتال فحسبُ ، بل هو خافق في معمل العامل ، وكوخ الفلاح ، وحقل الزارع » . صدق الرئيس المحترم ولكنه تكلم كفيلسوف فقط . ان قلب العالم خافق اوجع خفقاته في صدر العامل الذي لا عمل له ، والزارع الذي لا حقل له ، وفي صدر اليتيم الذي

له جسم يعذبهُ وليس له من يهتم به ويحنو عليه . ان قلب العالم خافق اوجع خفقاته وأشدها هولاً وخطراً في صدور غلمان الازقة ونزلاء الارصفة من شيوخ ونساء وفتيات واطفال يتسولون ويتأوهون ونحن نعرض عنهم لانهم ليس فيهم ما يتطلبه ذوقنا المتعجرف من اناقة وكياسة ! انا ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني الا خنقتني الغصات اشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا وقع نظري على الاثواب النفيسة والجواهر المتألقة الا التاع قلبي على ايتام ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلت مقاصف سهراتنا وافراحنا، او شهدت أفواج الوافدين على سولت وجروبي ومحال الملاهي والسمر الكثيرة الا ضاقت مني النفس كمداً على فتيات مصريات طالما رأيتهن باحثات بين ما تلقيه المنازل الكبرى عن فتيت يصلح للغذاء . عن فتيت يصلح للغذاء ؟ أيقال هذا في مصر ويجري مثل هذا في مصر أمّ الجود والخيرات ؟ اواه ! انك لتهتزين الا ن يا شهامة الرجال ! انك لتحزنين ايتها الاريحية المصرية وتقومين محتجة على قولي . ان هذا القول الاليم أثبته حزينة أنا أيضاً ، وباسم السخاء المصري احتج صارخة ان هذه

الفواجع لا تجوز ولا ينبغي أن تكون في مصر ! — حتى أنت يا عيون الظلام ، ايتها الكواكب المحدّثة بعظمة الوجود وخلود الضياء ، يا طالما رصدتك وقد خلتك في قلب الشقي حروقاً وفي عيني البائس دموعاً !

هاك الشوارع الوطنية والاحياء الاوربية جبْها طولاً وعرضاً ، في كل مكان تلقَ الاعضاء المشوهة والعيون المظلمة وذل اليد المستعطية ، وفي كل مكان ترتفع العين المصرية دامعة ! سلوا الاطباء من ينشر جراثيم الامراض ، وسلوا المصلحين من يقلق الامن والنظام ، وسلوا المفكرين عن ذاك الشيء الذي يسمونهُ « سرطان الاجتماع » ، وسلوا رجال القضاء عن اكثرية المجرمين . بل سلوا تلك اليد المجهولة التي تنشر الراية السوداء على السجون ، وسلوا الجلاد أيُّ الاعناق تمر بين يديه لتحضنها حبال المشانق . . . المشانق ! كلمة رهيبة ! ميتة ذليلة يشتريها الجاني بما هو جانٍ . يجرُّه القنوط والجهل والحاجة والعادة الى ارتكاب الجريمة فيلقاه عدل المجتمع بالعقاب الشديد . ولكن هذا المجتمع الذي يقتل الجاني بأنانيته واهماله قبل ان يقتله بعدله ، هذا المجتمع الذي يهدم

نفس الجاني مرات كثيرات قبل ان يعدم جسده مرة واحدة ، ترى لماذا لا يسأله ولا يطالبه احد؟ ألأنهُ قوي قادر غني ؟ ألا لله در الشاعر القائل :

والعدل في الارض يبكي الجنّ لو سمعوا
به ويستضحك الاموات لو نظروا
فالسجن والموت للجانين ان صغروا
والمجد والفخر والاثراء ان كبروا
فسارق الزهر مذمومٌ ومحتقر
وسارق الحقل لهو الباسل الخطر
وقاتل الجسم مقتول بفعلته
وقاتل الروح لا تدري به البشر [١]

ألا يا أيها المطربونا بنشيد الحرية العظيم ، هلاّ ذكرتم ان للحرية جناحين؟ في قدم الامة اغلال السقام وقيود الهوان فكيف بلا تكسير هذه الاثقال تطيرون ؟ ألا قفوا امام المجرم خاشعين ! انه كان في حاجة الى العطف والمؤاساة لكنّ المجتمع احتقرهُ ونبذه فاندفع يتدهور في هاوية

(١) من كتاب « المواكب » لجبران خليل جبران

الشرور . من منا يدري كم الهبت الحسرة فؤاده وكم ادمت العبرات مقلتيه ؟ ألا احنوا الجباه امام قوّى حصرت فيه ولم تهتم به يد الرعاية لتبرز الى الوجود خيراً . احنوا الجباه امام فتيات الشارع البائسات ! ان فيهنّ شعوراً لطيفاً تنهشه كل لحظة أنياب الفاقة ، وفي عيونهنّ أشعة الذكاء والحنان يحجبها ليل المسكنة وظلام الدموع ، وبين شفاههنّ كلمات المحبة منسيات لانهن لا يستعملن الا كلمات الاسترحام والاستعطاء ؛ انهن بحر البشرية العميق الوجيع ! احنوا الجباه لذكر من ندعوهم الرعاع والغوغاء ! ان عندهم قلوب رجال و نفوساً ابية لو كنتم لها مهذبين . ان اليد منهم لم تخلق للتدمير والنهب والبطالة ، وانتم لمطالبون بجعلها يداً امينة نشيطة عاملة لخير البلاد ، يداً تحمل بكفاءة وكرامة القلم العربي ،والسيف الشرقي ، والعلَم المصريّ المفدّى ! (تصفيق حاد متتابع)

إني أقبل هذا التصفيق الحماسي أيها السادة ، أقبله بفخر ، وأقدمه الى الدكتور نظمي بك والقائمين بهذا المشروع الخطير . أقدمه الى الايدي الرحيمة التي ستنقلب تحت لمسها دموع التمساء بسمات ، والى المحسنين الذين ستقف عطاياهم

في وجه الفاقة سداً منيعاً . لقد تصافحت مصر وسوريا قبل اليوم في مواقف ادبية كثيرة ولكنهما لم تقفا جنباً الى جنب في اشرف من هذا الموقف ، موقف الدعوة الى البر والاخاء. وتصفيقكم هذا اثمن ما عندي في هذه الدقيقة فأقدّمه تذكار ولاء واعجاب واجلال من سوريا المصرية الى مصر الكبيرة البذولة الاريحية !

أيها السادة والسيدات

انما النيل مدين بفضله لسحر الدموع . ضاع الاله اوزيريس يوماً فالتاعت الالهة ايزيس لفراقه وجلست على شفة النهر تبكيه . اذ ذاك اضطربت اعماقك ، ايها النيل العظيم ، فاندفعت متدفقاً جاعلاً من ربوعك التربة تبراً ، تاركاً سهولك التاريخية في ربيع دائم ! كل عام يهيجك ذكر دموع الهة الاسرار والاشجان فينتظم منك الفيضان وفياً ، وستظل على العهد اميناً ما بقي ابو الهول محدقاً في الفضاء وبقيت المجرة منبسطة في عقيق السماء !

من منا لم يبكِ ولو مرة كربة الوادي ؟ أيُّ بشر لم يضف الى بحر العبرات الانسانية دمعة واحدة تعلّمه نبل

الاحسان وعذوبة الاخاء ؟ ألا ان كلّنا عليل سقيم وفي قلبه حروق الزفرات والاحزان . فانهضي الساعة يا ذكرى الدموع امامنا جميعاً ! انجلي يا دموع الافراح ودموع الاتراح، دموع العزّ ودموع الذلّ ، دموع الفراق ودموع التلاق ، دموع اليأس ودموع الرجاء ! انتِ التي تثيرها فينا نوائب الايام وايلام الغرباء ، وانت التي تضعها في عيوننا اسماء الاحباب . دموع الماضي الذي لا ينقضي ودموع الحاضر القوي بتأثيره . كلّكِ ، كلكِ أيتها الدموع التي لا اسم لكِ في لغات البشر لأنكِ نثرات الارواح الغاليات ، واجزاء من العمر متطايرات! انجلي لتنبّهي كل ما جُمع في الروح المصري من مجد الفراعنة وعظمة الاسلام ! انجلي امامنا متوهجات لاذعات كالنار ليحوّلك الالم رأفة وكرماً ! اذ ذاك تذكر اليد المصرية ان النيل قد طبع عليها رسم سخائه ، فتتناولك الهمم الشماء وتبلور كلا منك حجراً متيناً يقوم به « ملجأ الحرية » !

تأبين باحثة البادية(١)

سيداتي ،

لما اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الاولى في ١٩١٤ بعد تصفح بمجموعة « النسائيات » لم استشعر بانه قدر عليَّ ان أقف لتأبينها عمّا قريب . يومذاك لم اشعر الا بجاذب تخطى بي من دور الاعجاب بقلمها الى دور الميل الى شخصها ، لأنها كانت من الذين خصتهم الطبيعةُ بقوةٍ مغناطيسية تجذبُ الغريب فيفطنُ لنفسهِ وقد وجد فيها مكاناً خالياً ينتظره منذ زمن طويل . وليس موجد تلك القوة ما يسميه البشرُ جمالاً وذكاء أو لطفاً وظرفاً ، بل ان مستودعها جسمٌ أجوف قائمٌ في الجانب الأيسر من الصدر — ذلك الجسم الذي ما ذكرهُ حتى اكثر الناس طيشاً وزهواً الاَّ وطأطأ الرأس كمن ينتبهُ لمعنىً عميقٍ من أقدس معاني الحياة

ان عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط

(١) ألقيت في الحفلة التي أقامها السيدات المصريات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية لمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٩

الانسانُ الى اعماق الماء وجعل لهُ أجنحةً تسابقُ طير السماء ؛ وبها استعبد عناصر الأرضِ وكشف أسرار الكهرباء . من البواخر العظيمة التي تحذفُ الأبعاد وتلاشي البحار الى الساعةِ الذهبية الصغيرة التي نقيسُ بها الزمان ، في كلِّ من احوالنا نرى الآلات ممثلةً دوراً مهمًّا . لكنَّ هذا الجسم الاجوف القائم في صدر الانسان ، هذا القلب البشريّ العجيب ، ما زال أتمّ الآلاتِ وأقواها ؛ بل هو أقدر من أعظم القواطر الحديدية على الاطلاق اذا جعلنا المقابلة على نسبةِ الحجم الصحيحة . آلاتُ الفولاذ والحديد ، تلك الصناديد المعدنية التي تزحزح الجبال وتُدمّر المدائن والحصون ، تملُّ العمل وتطلب الراحة ؛ وهذا الجبّار الصغير المخلوق من دم ولحم لا يعتريه إعياء ولا سكون لأنَّ في وقوف حركتهِ انتهاءَ الحياة الجسمية ، وفي سكونهِ وراحتهِ شقاء العواطف البشرية

وما كانت قوتهُ الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة الف مرة في اليوم ، واربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت

قوتهُ الكبرى في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقهُ عليهِ التيوصوفيون والشعراء اذ جعلوهُ هيكل العواطفِ والرغبات ومنهلَ الحبِّ والاشفاق والمكارم . ليقلْ العلماء ما شاءوا من أن العواطف تتولد في الدماغ . أما نحنُ صغار الخلائق فحسبنا شعوراً بان في رياض القلب تغرّدُ أصواتُ الطرب وترفرفُ أجنحةُ الهناء ساعة نكون من السعداء . وان القلب منا يمسي صحراء محرقة تجولُ فيها لواعج الاحزان ويتعالى في تيهها نحيبُ الوداع والحسرات عندما نكون من التعساء . حسبنا علماً ان هذا القلب يُسيرُ العالم وان من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم

لقد تصلّب قلبُ الرجل قليلاً — أو كثيراً — في حرب الاقتصاد التي ما فتىء يشهرها في ميادين الحياة ، فلحق ببعض عواطفهِ جفافٌ وتوتُّر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أن القلب ما زال مملكة المرأة ، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمعُ القوة والدقة والكآبة والصفاء ،ويختلط التأملُ بالاحلام والقنوط بالرجاء . عند ما لا يتكلمُ من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعنَ في صوت

المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تتمة بكاء . وحينما يعتز الرجل بادراك ذروة السؤدد ونيل بعيد الغايات ترين المرأة منحنيةً على نفسها كمن ينحني على جرح بليغ ، تريها منحنية على قلبها لأن شيئاً يظلُّ نائحاً فيهِ . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الابّهة والتبجيل والاعظام وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطرماً في صدر باحثة البادية على مقربةٍ من ذكائها الفطري ، ولم تكن الفاظها الاّ شرار وميضهِ . به اختبرت البيئة المصرية في كثير من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أن هالها ما شهدت من ذلٍّ وتعاسةٍ غمست قلمها في مدادٍ هو سيّال قلبها الناري وكتبت فصولاً خالدات . ان محاسن التنميق والانشاء تُعجبُ وترضي الى حين ، لكن يا لسرعان ما تدرّج تلك المحاسن في اكفان النسيان لأن الطبيعة البشرية لا تحتمل الاعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متقدةٍ فيدخل في القلوب مباشرة

بلا وسيط ويمتزج بها لانه يعبّر عنها، يمتزج بها حتى يصير جزءا منها يأبى التفرق والانفصال

وكما أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية كذلك رأت ببصيرتها النقية أصوب طرق الاصلاح اعتدالاً وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي. وقارئ « النسائيات » يقف على خطتها الاصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبداً ولا المرأة ساخطة متمردة، بل يتصافى الاثنان فتصير هي له اخلص الاصدقاء وأوفى المساعدين، ويصبحُ هو لها أخلص الاصدقاء وألين المرشدين. فيسيران في سبل الحياة وقد جعلهما التفاهم متغلبين على المصاعب، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة

وذلك أقصى ما ترمي اليه العائلة الاجتماعية في كلّ زمان ومكان

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار بك الباسل واستميحكن بالوقوف قليلاً عند هذا الاسم. اذكرن انها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩٠٩، وتصوّرن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة يوم كان القوم يرمون

قاسم أمين بالكفر والالحاد لأنه جنى هذا الاسم الفظيع الذي يدعى المناداة باصلاح المرأة !

إن اعجاب الناس بامرىء لا يسلمُ من لازم متعدٍّ هو انتقادهم له. فاذا كان الجمهور شديداً على الرجل يحسب نقضه بعض بالي العادات عدواناً لبني الانسان ، فما قولكنَّ في ظهور امرأةٍ ذات رأي شخصيٍّ وذاتيةٍ حرةٍ في ذلك الوسط الرجعي ؟

يجب ان يكون الوسط راقياً جداً ليقدر الفرد الراقي والا أهمله وعدَّ نبوغه جنوناً ، ورأى في توجهه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً

غير ان الباحثة كانت على حكمة مكنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أن يغضبها تعنُّت الناقدين تجلت لها الحقيقة كما تتجلى احياناً في لحظات الالم ففهمت ان الطريقة المثلى لتهذيب الرجل واعلاء مداركه هي تهذيب المرأة واعلاء مداركها ، وان الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حراً نبيلاً عظيماً هي تحرير الامّ من قيود الغباوة والخمول وافهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً

انهُ كان في وسعه ان يحطم قلمها باشارة صغيرة ، وبكلمة واحدة كان يستطيع اسكات ذلك الصوت الفعّال . بيد ان عبد الستار بك عربيٌّ صميم ، ولهُ من وراثته الكريمة ما يذكّرهُ بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات من حرية وأنفة ، فقاخر بأن تعيش في ظلّهِ من تماثلهن عزة وبياناً

فليسرْ اليه الآن شكر المرأة المصرية مقروناً بآي الثناء !

أمّا أنتِ ، يا أم الباحثة ، فلكِ أنقى ما في القلوب من احترام واجلال ! وساعة تذهبين لزيارة حفني بك ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ، قولي لهُ ان اسمه مجيد مرتين : مجيد بعلمه وفضله ، ومجيدٌ لانه والد امرأة مجيدة .

هذا كلُّ ما أردتُ ان اقول ، يا سيداتي

وحول القلب الفتيّ الذي كان يذوبُ اشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذّبة ويلتهب غيرة على مصر والمصريين ، حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع خطيباً والقلم الجامد الذي طالما تحرك كاتباً اجتمعنا اليوم ، المسلمة منا والقبطية

والسورية ، لنحيي أختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكر هذه الايام المملوءة حماسة وأحزاناً

نعم، المرأة المصرية التي انبرت بالامس تهتف في الجماهير هتاف الوطنية والفخار قد عقدت اليوم في هذه الجامعة الاهلية المباركة اجتماعاً معزّياً في كآبته ، سامياً في معناهُ ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواء حديث اجتماعنا الى من لم تحضرهُ من أخواتنا في القاهرة ، وفي الأرياف ، وفي الثغور ؛ ولينقله الى نساء سوريا والعراق وسائر الاقطار العربية والاقطار الغربية التي ينشدُ نفرٌ من نزلائها أبياتاً نظمت بلغة القرآن ! ولتردد النساء اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحثة البادية » فيكون هذا الاسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد الديار واتساع البحار !

الشجرة (١)

هناك في قلب الصحراء يستظلُّ أهل البادية بالشجرة اليتيمة فيتذوقون بعد القحط والضنى خضرة الخمائل وهناء المروج . ثم يودعونها وقد أوجد الشكر عبادتها في قلوبهم فيعلقون على أغصانها ما في العنق من قلادة وما في المعصم من سوارٍ

* * *

بعد أن لبث الفكر العربيُّ حارس جنات العلم والادب قروناً طوالاً عاد فتجذّب مخضابُ الارضين نحو ثلاثة قرون. اذ ذاك جئت ، يا صاحب اليوبيل ، فكنت في الصحراء اليد الغارسة والشجرة المغروسة جميعاً. فمُ اليوم ، أيها البستاني

(١) أرسلت هذه الكلمة الى لجنة الاحتفال باليوبيل المئوى لبطرس البستاني ، وكانت اللجنة المذكورة وزعت أوراق الدعوة على كتاب العالم العربي ليشتركوا عن بعدٍ بذلك الاحتفال الذي أقيم في الجامعة الامريكية ببيروت في آخر شهر دسمبر سنة ١٩١٩

الكبير ، وراء طيات وشاح الخلود بينما يتبارى أبناء سوريا حول ذكرك منشدين كما يجثو أبناء البادية أمام الشجرة الظليلة شاكرين . نم اليوم عظيماً جليلاً ، يا بستاني حبّات الفضل والعرفان ، بينما هم يعلّقون على فروع مجدك الباذخ قلائد الثناء وعقود الشكران !

ظلُّ الالهِ الثاني [١]

ايها السادة والسيدات

ليست هذه زيارتي الاولى لمدينتكم العامرة لاني تشرفت وجئتها قبل الحرب بشهر لمثل هذا الاجتماع . وان لم يكن اليوم بينكم من يذكر الفتاة التي كانت يومذاك طفلة في عالم الفكر فانها هي ما زالت تذكر بارتياح ما لاقته من انس البشاشة وحسن الضيافة . وبعد أعوام ذاق فيهـا البشر ما ذاقوا من طعوم الاوجاع اراني سعيدة بالعودة ، واشكر لرئيس هـذه الجمعية الهمام وحضرات أعضائها الافاضل دعوتهم ، واتوسع في الشكر قليلاً لاصل الى سركيس افندي الذي انضم اليهم في هذه الدعوة التي مكنتني من المجيء لاجدد تذكاراتي عندكم وأُحييكم مرة أخرى

على أن في تحيتي الواحدة عناصر شتى : فيها السرور

---

(١) القيت في حفلة جمعية الاتحاد والاحسان السورية للرجال والسيدات بمدينة طنطا في ٢٩ فبراير ١٩٢٠

بمرأى الرجل والمرأة متسابقين في اتيان المعروف . وفيها الثناء على نخوة القائمين بامر هذه الجمعية أمحسنين كانوا أو عاملين . وفيها الاغتباط بمشهد المصري والسوري متقاربين متآخيين في هذا النادي . ولكن فيها خصوصاً عنصراً فتيّ يتسرب بارزاً في نبرات الخطيب وسطور الكاتب : هذا العنصر هو عنصر الامل ، عنصر الحياة ، المتولد من اليقظة المصرية الحديثة

خطوات واسعات خطت مصر في هذا العام ، لا سيما في شأن المرأة . خطوات ترقبها بشغف وفخر نفوسنا المرتوية من مياه النيل المقدس ، المستنشقة هواءً ما فتئت تبعث به آلهة الاهرام الى أحفادها مصريّي القرن العشرين . وبهذا الامل الذي يرى غد مصر عظيماً خالداً كأمسها — بهذا الامل السعيد أرفع صوتي هاتفة : لتحيَ مصر الحديثة !

ايها السادة والسيدات

على مقربة من الحياة السياسية والاجتماعية حياة أهمّ لانهما بها يتكيفان وهي الصفحة التي تنتقش عليها جميع أعمال

العمران. الاّ انها تتناول الناس فرداً فرداً دون أن تشمل الاقوام دفعة واحدة وبلحظة واحدة كما تفعل الحماسة الوطنية والحميات القومية

تلك هي الحياة الاقتصادية وقوامها المال الذي يحمل الحقائق الخيالية حقائق محسوسة ويملأ البسيطة ببهجة المدنية ومنافعها — وقد دعاه السيد المسيح الاله الثاني. وكما أن لله عز وعلا ضداً نسميه روح الظلام، أو الشيطان، كذلك للاله الارضي، الاله الثاني، ظل يتهادى بين القصور والاكواخ على السواء، ويهدد جميع الناس وهم أبداً منه هاربون، ذاك هو شبح الحاجة، شبح الفاقة

انه لشبح هائل نرى خيال قبضته السوداء في صفحات التاريخ واليه ترجع أسباب الاضطرابات، والقلاقل، وكل ثورة شبّت في بلد فتركت صروحه انقاضاً. وليست الفواجع العامة الكبرى بأشد هولاً من الفواجع الفردية الصغرى. فقد عذّب هذا الشبح اكثر أرباب الفكر والعلم والفنون، وطالما ادمى أجنحة النبوغ بمخالبه وأوثقها بكتائفه، وجعل صاحبها يعيش ضيق اليد مضعضع الشأن ويقضي جوعاً وغماً.

وان لم يهبط الفقر بالجميع الى هذه الدركة المدلهمة فان الخوف منه يظل مستبداً بالناس استبداداً ويحتل حياتهم احتلالاً لا جلاء له يرجى . فذلك الوجه العابس هو وجه من يحاول التوفيق بين دخله وبين مقامه الاجتماعي او راحة من يحب ؛ وتلك الجبهة المنحنية المقطبة هي جبهة الشاب الذي يكدّ منذ أعوام ليخطو الى الامام ولكن المال حاجته ليرسم على باب الدهر اشارة الظفر ؛ وتلك العيون التي تطوف فيها خيالات القلق والهواجس انما هي عيون من عرف عز ثروته الفكرية والشعورية من جهة وعوزه الذليل الى الدرهم من جهة أخرى ؛ وكم من عمل ممقوت وأمر مستهجن ، بل كم من مكر وخيانة ودهاء قد يأتيها المرء مرغماً وما كان الداعي اليها غير الحاجة أو تلافي الوقوع بين مخالب الفاقة

فاذا كانت هذه حال المتوسط والغني أحياناً ، فماذا نقول في أولئك الذين لا يطالبون الا بنصيبهم مما تنبتهُ الارض من غذاء وتدرّه من شراب ؟ ماذا نقول في أولئك الذين أثقلتهم الحياة بحاجات الاحياء وبخلت عليهم بما يقوم بتلك الحاجات ويسد منها الفراغ ؟ ماذا نقول في عبيد الشقاء

الذين لا يعلمون لماذا يحيون ولأي غاية يتألمون

ما أطيب الألم ، أيها السادة والسيدات ، اذا كان ذا نتيجة مخصبة ! ما أحبّ يد الشدة ، سواء أكانت يد حال أو يد انسان ، التي تلطمنا لترشدنا وترقينا ! انما في الجهاد والالم قيمة الحياة ، والدموع الراسبة في أعماق القلب تذيب منّا الغرور والكبرياء وتأتينا بالخبرة العجيبة التي تدنينا من جوهر الاشياء وتخرج منا الحكماء والانبياء . فللحياة فضل علينا في كل جهاد تحرجنا اليه ، وفي كل حرمان تشعرنا به ، ما دامت العقبات والصعاب واسطة لاتساع المدارك وإنماء الملكات . فما تجيء الكوارث وتروح الآ ونحن كذلك البحري الذي كافح الزوابع ، أو كذلك الجندي الذي خاض معامع المنايا نخرج منها قوياً ظافراً

بيد ان ازاء الالم النافع والجهاد المثمر نوعاً آخر من الالم يقتل الذكاء ، ويقطع أوصال الامل ، ويضع بين شفتي الحيّ طعم الاكفان والقبور . ذاك هو الالم العقيم الذي لا نتيجة له كألم المعدمين العاجزين الذين لا يعولهم أحد ولا يحبهم في الدنيا مخلوق . حتى اذا تجمّد ألمهم يأساً ،

وتحجّر حقداً ، والتهب كرهاً انفجر بين الامم حمماً وبراكين تدعى الاشتراكية المتطرفة والبلشفية والفوضوية والعدمية. فيهبُّ دعاتها منادين بالاخاء وما كانوا متآخين بغير التمرد والجهل القتال والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في ماله وجاهه . فيقلبون الحكومات ، ويقلقلون الامان ، ويلغون الانظمة ، ويسلبون الممتلكات ، وينصفون طائفة ليظلموا طوائف . كل ذلك باسم المساواة

وما هي النتيجة يا ترى ؟

يوم تندكُّ عروش الافراد وتقوم على انقاضها ابنية الامم ، يوم يتغلّب العامل على صاحب رأس المال فيحرجه الى ما يشاء وما فيهِ يرغب ، يوم تتمزّق انظمة الامس لتسنّ انظمة الغد ، اذن هل تتحوّلُ انظمة الطبيعة ؟ كلا ! اثنان في الكون لا بدّ منهما لحفظ موازنة الكون وان تغيرت منهما الاسماء والاجناس : كبير وصغير ، تابع ومتبوع ، سائد ومسود ، ظالم ومظلوم ، مفترسٌ وفريسة . . هذا هو نظام الطبيعة العنيد ! ومن بين هؤلاء المتمردين الثائرين ستتكوّن نواة تسود شيئاً فشيئاً فيمتد تحتها الذل والتعاسة من جديد ،

ويثور قومٌ آخرون ، وتعود الفاجعة التاريخية مرَّةً اخرى ! يقولون ان الطبيعة امٌّ ، فيا لها من أم عتية تسعد ولداً لتشقي أولاداً جاعلةً حضنها الرحب ساحةً لأشد المعارك وافظع الحروب !

لقد مرّت ملايين الاعوام والوف الدهور والطبيعة صماء لا تلين لصراخ الضعفاء وزفير المتوجعين ، ونبضات قلبها الكبير لا تضرب الا على وفق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن أصواتها الكثيرة تهتف للصاعد سلم الغلبة .وتشجعهُ فيدوس على أعناق المندحرين متخذاً من جماجمهم مراقي يصل بها الى القمة المنشودة . هذا هو ناموس تنازع البقاء وبقاء الاصلح : للقوي البقاء وللضعيف الفناء . ناموس جائرٌ الا انهُ قاهر واحكامه ثابتة لا تتغير . ولكن ، ألا سُكبت عليك البركات يا قلوباً سمت بكرمها فأدركت انفوق نظام الظلم نظام الرحمة ! وأُسبغت عليك النعم ، يا أيدي الشفقة والاحسان ، لانك تكوّنين الحلقة الانسانية الذهبية المتعالية على جور الطبيعة طموحاً الى عظمة الالوهية !

عرفتم ذلك ، ايها القائمون بأمر هذه الجمعية المباركة ،

فقمتم تساعدون بقوة المال وتسعدون بعطف المحبة. ان لرجال طنطا اسماً عاطراً غير اننا نفاخر باهتمامهم بالخير واغاثة الملهوف اكثر من مفاخرتنا بما لديهم من ذكاء ووجاهة.

وانتن، ياسيداتي نساء طنطا، مشهورات عندنا بالجمال. غير ان عذوبة الحنو في المرأة أجمل من جمال الوجه وأبقى. وقيامها بالواجب نحو الآخرين أشرف من المطالبة بحقوقها. وحقكنّ ان تفعلن الامرين معاً. طالبن بالمعقول من تلك الحقوق فلا يبخل عليكن بها، لان للرجل العريق في السيادة جميع صفات السيد من كرم شامل، وعقل راجح، وصدر رحب، وعدل تام؛ ونجاح المرأة متوقف على مهارة الطلب وعلى كيفية التصرف في الحرية المعطاة لها قليلا قليلا

ولكن المطالبة بالحقوق، وان حلالاً، فهي دون اعمال البر قيمة ومقاماً. تلك انانية وهذه غيرية. تلك اخذ وهذه عطاء. والمعطي فوق الآخذ دواماً. تلك خصام وكفاح وهذه اجلى واجمل مظهر للمفاداة الاخوية. ولئن كان تنازع البقاء واسطة لارتقاء الحيوان، كما قال هكسلي، فان المفاداة والتعاون أحد سبل الارتقاء للانسان. ها كم النيل مادًّا يداً

من أياديه البيضاء في مدينتكم ليروي الاراضي العطشى فبدهي ان تتمثلوا به باسطين يد الكرم الاخوي في مجاهل التعاسة . وفي وسط مما يملأ العالم اليوم من دماء ودمار وخوف وضغائن ، في وسط الصراع القائم بين الشعوب والشعوب ، وبين الامم والحكومات ، وبين الدرجات الاجتماعية على اختلافها ، في وسط هذه الزلازل المتكاثرة مهددة صرح المدنية بالخراب تظل جمعيتكم هذه نوراً من الانوار الطاهرة المتألقة في سماء الحب الانساني منسية ما يحيط بها من ظلمات الفاقة والاحقاد والشقاء !

كتب اخرى بقلم « مي »

باللغة العربية

ابتسامات ودموع

غاية الحياة

باحثة البادية

رجوع الموجة

الحب في العذاب (جزآن) تصدر قريباً الطبعة الثانية

باللغة الفرنساوية

Fleurs de Rêve

ZIYĀDAH

KALIMAT WA-ISHARAT